

تأليف

محمود شاكر

المكتب الإسلامي

التوجيه والتقويم

خلال التاريخ الإسلامي

تأليف
محمود شاكر

المكتب الإسلامي

الطبعة الأولى

١٤٠٧هـ - ١٩٨٦م

المكتب الاسلامي

بيروت: ص.ب ١١/٣٧٧١ - هاتف ٤٥٠٦٣٨ - برقياً: اسلاميا

دمشق: ص.ب ٨٠٠ - هاتف ١١١٦٣٧ - برقياً: اسلامي

التوجيه والتقويم

خلال التاريخ الاسلامي

مقدّمة



الحمد لله ربّ العالمين والصلاة والسلام على رسول الله محمد بن عبد الله خاتم النبيين وإمام المرسلين وعلى آله وصحبه أجمعين ومن دعا بدعوته إلى يوم الدين *أما بعد* :

فإن من واجب المسلمين أن يُراجعوا حساباتهم وقد تكالبت عليهم الدنيا، وأن يعيدوا النظر في مناهج تربيتهم بعد أن بدأت تنجح وسائل الأعداء في احتواء بعض الذين يبرزون من المسلمين سواء أكانوا أفراداً أصحاب إمكانات أم من الذين لهم دور في حركاتٍ ومُنظّمات. وكان لهذا النجاح أثره سواء أكان في الهجمة الشرسة التي يقوم بها الأعداء إذ قويت وأخذت شكلاً أكثر بشاعةً وأكبر دهاءً ومكراً أم في الهزيمة النفسية التي أصابت المسلمين الملتزمين المُتحمّسين وقد رأوا بعض أعيانهم يتساقطون في شرك الأعداء ويسيرون في ركابهم وراء مصلحةٍ لهم وقد كثرت الخيرات في أيدي الناس، أو وراء زعامةٍ وقد طالت عليهم الطريق، أو خلف تحقيق رأيٍ وقد فشلوا أمام مُنافسٍ أو تغلّب عليهم جناح فخافوا من سدّ الطريق عليهم، وكل هذا يدلّ على ضعفٍ في الإيمان وعدم صدقٍ فيما يدعون له وبالتالي

نقص في مناهج التربية التي نشؤوا عليها، والمدرسة التي تخرّجوا منها، وإن كانت النفوس تختلف فينحرف بعضها تحت المؤثّرات التي تتعرّض لها، غير أن هذه الكثرة المتساقطة هي التي تضطرنا إلى مراجعة الحسابات وإعادة النظر في مناهج التربية.

إن انحراف فردٍ يُؤثّر على سير خطّ الحركة سواء أكان في إمكاناته هو لدوره الذي يقوم به ومركزه الذي يشغله أم في إبرازه وأمثاله ومن يوافقونه على خطّه ومن يتعصّبون له فيظهر الإنحراف ويشتدّ خطره ويعظم بلاؤه، وإن عملية التقويم بين آونة وأخرى أو إثر كلّ مرحلةٍ أو محنةٍ يُوضّح ذلك ويُظهر ما كان مخفياً.

إنّ الحركة إذا كانت صادقةً في دعوتها مُخلصةً في عملها راغبةً في تحقيق الغاية التي تضعها نصب عينها ومُؤمنةً بذلك الإيمان كله لا تقبل أن يكون في صفها عضو فيه شائبة من الشوائب تُخلّ بالفكرة التي تدعو لها أو تتنافى مع السلوك الذي تشترطه في أعضائها. وإذا كان هذا صحيحاً بالنسبة إلى الأعضاء فهو أمر طبيعي بالنسبة إلى من يتصدّى للقيادة ليمارس دور الريادة فلا يصحّ قبوله أبداً على أنّه فرد مُجّرد من مركز الصدارة، وأنّ بقاءه لهو أول المخالفات وبداية الإنحراف المفاجىء الخطير، وربما ادّعى بعضهم تتمّة للإنحراف إن التنحية تُؤدّي إلى هزّةٍ نحن في غنىً عنها، غير أن الهزّة مع بقاء الإستقامة وأصالة المنهج خير من

التجمّع على غشّ والهدوء على باطل والسكوت على الإنحراف.

تخضع الشعوب لهزّاتٍ في مراحل حياتها وخاصةً أثناء قفزاتها الحضارية أو تطوّراتها الإجتماعية أو احتكاكها مع ما جاورها من شعوبٍ وأُممٍ، وتُحاول عند كلّ هزّةٍ أن تُعالج مُشكلتها بصورةٍ تراها مناسبةً فتضع الخطّة، وتُمارس المعالجة، وقد تنجح وتتخلّص من أزمتها التي وقعت فيها، وقد تفشل وتتردّى الأمور، وتتعقّد القضايا، وتتعذّر الحلول، وتتعمّق جذور المعضلة، وتعنف الهزّة فتسقط الشعوب، وينساح الأعداء في أرضها، وفي كلا الحالتين إذا كانت الشعوب حيّةً قادرةً على الصراع في سبيل البقاء يلتقي أهل الرأي ويقوّمون المرحلة التي مرّ فيها شعبهم فيتفادون النقص الذي وقع، ويُصحّحون المسيرة بإزالة العقبات التي اعترضت سبيلهم، ويبتعدون عن الأخطاء التي وقعت، ويُزيلون الآثار الناجمة عنها، ويُجدّدون محاولة المعالجة، وهذا ما يُعرف بالنقد الذاتي. فإذا ما كان النجاح حليفهم منذ المعالجة الأولى ازدادوا قوةً، وقويت الخطة إحكاماً، والمعالجة سلامةً، وبدأ الخط يرتفع والتطوّر يتمّ. وإذا كانوا قد أخفقوا في السابق فإنهم يُحقّقون النجاح ـ بإذن الله ـ ما داموا قد سلكوا طريقه الصحيح. ولكن يجب أن يكون التقويم سليماً بعيداً عن الأهواء يرمي إلى معالجة صحيحة، ويهدف المصلحة العامة، ويقصد تخطّي الصعوبات ومتابعة المسيرة التي تُوصل الأُمّة إلى غايتها. أمّا إذا كان الغرض من النقد تحطيم المسؤولين

السابقين وإبراز آخرين ليحلّوا محلّهم، وتحقيق بعض المصالح وتأمين المنافع فإنّ المُشكلة تكون أعقد من هذا إذ أن الصفّ الثاني لا يصلح للقيادة، لا أقول غير مُؤهّل، فقد يكون كذلك، وربما كان على درجةٍ من الأهلية الكبيرة ولكنه لا يصلح لأنه سيء السريرة فاسد البطانة، وتُمالئه أعداد من القواعد، وفي هذه الحالة فإنّ الشعب سينتهي ويذوب في غيره، وينشأ بعدها شعب جديد ربما كان أفضل مما سبق. وقد زالت أعداد من الشعوب خلال التاريخ، بعضها هلك لأنه أعرض عن أمر الله وردّ ما أتاه عن طريق الرسل، وبعضها انحلّ في شعبٍ قهره، كما حدث للشعوب القديمة التي توالت بعضها وراء بعض وكلّ يذوب في الشعب الذي يتغلّب عليه ويحتلّ أرضه ويقوم مقامه، وربما ذاب الغالب في المغلوب إذا كان المقهور ذات حضارةٍ أعلى من حضارة المنتصر كما حدث للمغول الذين انصهروا في الشعوب الإسلامية والصينية التي دخلوا بلادها.

وقد تدبّ الحياة من جديد في شعوب هرمة كانت على شفا جرفٍ هارٍ فتنتفض وتتحرّك بفعل عاملٍ يهزّها فتنهض من سُباتها، وتسير وكأنّها وُلدت من جديدٍ كما فعل الإسلام في الشعوب التي دخلها فكوّن منها أُمّةً قادت العالم مدة تمسّكها بالعامل الذي رفعها وأقامها من كبوتها التي كانت عليها، وإن كان الإسلام عاملاً مُميّزاً يختلف عن أية عوامل أخرى لأنه عامل سماوي مصدره خالق الكون ومن فيه.

ومـا يُصيب الشعوب يُصيب الجمـاعات إذ تتعـرّض للهزّات بـاستمـرار مـع كـلّ مُتغــيّر في الشعب، ومـع كــلّ مُتبـدّلٍ في السياسة، ومع كلّ مُتحوّلٍ في القيادة، بل ومع كلّ مُشكلةٍ وكلّ جديدٍ في المفاهيم والأفكار ووجود رغبـات عند بعضهم، ودخول أهـواءٍ إلى نفـوس بعضهم الآخـر، وطـرح حلولٍ لمعضــلات، ومعـالجـة مُشكـلات وتبنّي آراء و. . . . . وتـزداد الهـزّات لـدى الجماعات عمّا هي عند الشعـوب لضيق حجم الجماعـة ومعرفـة بعضهم بعـضاً، ووضوح كثير من شخصياتها الأمر الـذي يزيـد المنـافسة فيـما بينهم إن لم تكن التربيـة على درجـةٍ كبيرةٍ من الـوعي، والهدف على درجةٍ كبيرةٍ من السموّ، والنفوس عـلى درجةٍ كبيـرةٍ من الإيمان والصدق في النيّة والإخلاص في العمـل، والاستمرار في التضحيـة ومع هـذا فالأمـر يحتاج بشكـلٍ دائمٍ إلى توجيـه، وتقويم كل عملية.

نسأل الله التوفيق وسداد الخطا والصدق في القول والعمل فهو نعم المولى ونعم النصير ولا حول ولا قوة إلّا بالله العليّ العظيم.



الفَصْلُ الأوّل

التَوجِيه في عَهْدِ النُبُوَّة

نشأت الجماعة الإسلامية الأولى وقد تلقّت التربية بصورةٍ سريةٍ مدة ثلاث سنوات، ثم خرجت إلى مجتمعها بنفوسٍ قويةٍ تدعوه إلى عقيدتها، وتُمارس نوعاً آخر من التربية من الصبر على العذاب المرّ، والشدّة البالغة، والمحن القاسية، وعلى المفاصلة الشعورية مع أقرب المُقرّبين وأغلى الأحبّة، وعلى البعد عن الديار والأوطان، وعلى مقاومة الحرب النفسية التي قام بها الكفّار إلى جانب العذاب الجسمي الذي مارسوه، وعلى الصدق والإخلاص إضافةً إلى الإيمان القوي الراسخ الذي لا تزعزعه الجبال، كلّ هذا قد صقل نفوسها، وهذّب طبيعتها فسمت على بيئتها، واستعلت على قومها، وتكوّنت بذلك القاعدة الصلبة البعيدة عن المنافسة فيما بينها، البعيدة عن الأطماع والأهواء، البعيدة عن كل ما في هذه الدنيا من مغريات. والمعتزّة بعقيدتها والمستعلية بإيمانها. وكان الوحي يُوجّهها، ويُصحح مسيرتها، ويقوّم رأيها، وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يتلقّى الوحي، ويتلو ما تلقّى على أصحابه، فيُطبّقون ما يتلقّون، وكان ذلك التوجيه العلوي أسمى من أن يُنظر فيه أو

يُقوّم لأنه من ربّ السماء خالق الكون ومن فيه، إذ يعقب كلّ حادثةٍ عتب، أو توجيه، أو رسم منهج، أو بيان حكم.

١ ــ رغبت قريش أن تتخذ كل الوسائل في محاربة الدعوة الإسلامية ومنها التعذيب والظلم، والمحاربة الإقتصادية، والحرب النفسية، والإعلام، والإستعانة بالآخرين على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من نصارى ويهود والخلق جميعاً إن استطاعت، فبعثت النضر بن الحارث وعُقبة بن أبي مُعيط إلى أحبار يهود بالمدينة، وقالوا لهما: سلاهم عن مُحمّدٍ، وصفا لهم صفته، وأخبراهم بقوله، فإنّهم أهل الكتاب الأول، وعندهم علم ليس عندنا من علم الأنبياء. فخرجا حتى قدما المدينة، فسألا أحبار يهود عن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ووصفا لهم أمره، وأخبراهم ببعض قوله، وقالا لهم: إنكم أهل التوراة، وقد جئناكم لتخبرونا عن صاحبنا هذا؛ فقالت لهم أحبار يهود: سلوه عن ثلاثٍ نأمركم بهنّ، فإن أخبركم بهنّ فهو نبيّ مُرسل، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل، فروا فيه رأيكم، سلوه عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول ما كان من أمرهم، فإنه قد كان لهم حديث عجب؟ وسلوه عن رجل طوّاف قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها، ما كان نبؤه؟ وسلوه عن الروح ما هي؟ فإذا أخبركم بذلك فاتبعوه، فإنه نبيّ، وإن لم يفعل، فهو رجل متقوّل، فاصنعوا في أمره ما بدا لكم. فأقبل النضر بن الحارث، وعُقبة بن أبي مُعيط بن أبي عمرو بن أُميّة بن عبد شمس بن عبد

مناف بن قصي حتى قدما مكّة على قريش، فقالا: يا معشر قريش، قد جئناكم بفصل ما بينكم وبين مُحمّد قد أخبرنا أحبار يهود أن نسأله عن أشياء أمرونا بها، فإن أخبركم عنها فهو نبيّ، وإن لم يفعل فالرجل متقوّل فروا فيه رأيكم.

فجاءوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقالوا: يا مُحمّد، أخبرنا عن فتيةٍ ذهبوا في الدهر الأول قد كانت لهم قصّة عجب؛ وعن رجل كان طوّافاً قد بلغ مشارق الأرض ومغاربها؛ وأخبرنا عن الروح ما هي؟ فقال لهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «أخبركم بما سألتم عنه غداً» ولم يستثن (لم يقل إن شاء الله)، فانصرفوا عنه. فمكث رسول الله، صلى الله عليه وسلم ـ فيما يذكرون خمس عشرة ليلةً لا يحدث الله إليه في ذلك وحياً، ولا يأتيه جبريل، حتى أرجف أهل مكّة، وقالوا: وعدنا مُحمّد غداً واليوم خمس عشرة ليلةً، قد أصبحنا منها لا يُخبرنا بشيءٍ مما سألناه عنه، وحتى أحزن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مُكث الوحي عنه، وشقّ عليه ما يتكلّم به أهل مكّة؛ ثمّ جاءه جبريل من الله عزّ وجلّ بسورة أصحاب الكهف، فيها معاتبته إيّاه على حزنه عليهم، وخبر ما سألوه عنه من أمر الله: «الفتية، والرجل الطوّاف، والروح».

وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لجبريل حين جاءه: «لقد احتبست عني يا جبريل حتى سؤت ظنّاً»؛ فقال له جبريل:

﴿وما نتنزّل إلّا بأمر ربك له ما بين أيدينا وما خلفنا وما بين ذلك وما كان ربك نسياً﴾[1] وعُوتب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، على وعدهم دون تعليق ذلك بإرادة الله ﴿ولا تقولنّ لشيءٍ إني فاعل ذلك غداً. إلّا أن يشاء الله واذكر ربك إذا نسيت، وقل عسى أن يهدينِ ربي لأقرب من هذا رشداً﴾[2].

٢ ـ ووقف الوليد بن المغيرة مع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، يُكلّمه، وقد طمع في إسلامه، فبينا هو في ذلك إذ مرّ به ابن أُمّ مكتوم الأعمى، فكلّم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وجعل يستقرئه القرآن، فشقّ ذلك منه على رسول الله، صلى الله عليه وسلم حتى أضجره، وذلك أنه شغله عمّا كان فيه من أمر الوليد، وما طمع فيه من إسلامه. فلمّا أكثر عليه انصرف عنه عابساً وتركه. فأنزل الله فيه: ﴿عبس وتولّى أن جاءه الأعمى....﴾ إلى قوله تعالى: ﴿في صحفٍ مُكرّمةٍ مرفوعةٍ مُطهرةٍ﴾[3] أي إنّما بعثتك بشيراً ونذيراً، لم أخصّ بك أحداً دون أحد، فلا تمنعه ممن ابتغاه، ولا تتصدّين به لمن لا يريده[4].

٣ ـ وروى مسلم في صحيحه عن سعد بن أبي وقاص قال: كنّا مع النبيّ، صلى الله عليه وسلم، ستة نفر، فقال المشركون

---

(١) سورة مريم: الآية ٦٤.
(٢) سورة الكهف: الآية ٢٣ ـ ٢٤.
(٣) سورة عبس.
(٤) سيرة ابن هشام.

للنبي صلى الله عليه وسلم: اطرد هؤلاء لا يجترئون علينا، قال: وكنت أنا وعبد الله بن مسعود، ورجل من هُذيل، وبلال، ورجلان نسيت اسميهما فوقع في نفس رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ما شاء الله أن يقع فحدّث نفسه فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه﴾[1]. هذه أمثلة من التوجيه الرباني للنبيّ صلى الله عليه وسلم في مكّة قبل الهجرة.

٤ ــ واستمر التوجيه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في المدينة، ولنأخذ بعض الأمثلة إذ من الصعب استعراض النماذج كلها. عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: لما تُوفي عبد الله بن أُبيّ جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فسأله أن يُعطيه قميصه يُكفّن فيه أباه فأعطاه ثم سأله أن يُصلّي عليه، فقام رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليُصلّي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله تُصلّي عليه وقد نهاك ربك أن تُصلّي عليه؟ فقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، : «إنّما خيّرني الله فقال: ﴿استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرةً فلن يغفر الله لهم﴾ وسأزيده على السبعين» قال: إنه مُنافق، قال: فصلّى عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله عزّ

---

(١) تفسير ابن كثير.

وجلّ ﴿ولا تُصلّ على أحدٍ منهم مات أبداً ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون﴾، فما صلّى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعده على منافقٍ ولا قام على قبره حتى قبضه الله عزّ وجلّ[1].

وإثر كل معركةٍ كان الوحي يتنزّل على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يستعرض الغزوة وما وقع فيها، وما قام به المؤمنون، فيقرّهم على بعض أفعالهم، ويُوجّههم في بعضها الآخر، وقد يتحدّث عن بعض ما كان يجول في نفوسهم، ولننظر إلى بعض هذه الأحداث.

٥ ـ لقد صبر المسلمون الأوائل ثلاث عشرة سنة في مكّة على أذى قريشٍ وحربها لهم جسمياً واقتصادياً ونفسياً وإعلامياً، فانتقلوا مهاجرين إلى المدينة، وتأسست الدولة الإسلامية الأُولى، ورسخت قواعدها، ورست أُسسها فأذن الله لهم بالقتال، فاستعدّوا وتهيؤوا واستغاثوا الله وقدّموا ما عليهم فنصرهم الله في بدر على الكفار رغم قلة إمكاناتهم وأعدادهم بالنسبة إلى أعدائهم، فقتلوا من خصومهم سبعين وأسروا مثلهم، ورأوا فداء الأسراء رغبةً في إيمانهم في المستقبل، وتقويةً بما يأخذونه من فداء، ومحافظةً على القرابة. . . . وأنزل الله سورة الأنفال إثر غزوة بدر، وبيّن للمسلمين ما يجب عليهم فعله لتحقيق النصر،

---

(١) تفسير ابن كثير.

وليس عليهم إلّا ما يُطلب منهم، ثم يكون النصر من الله يُؤتيه من يشاء، وحتى القتل لن يكون إلّا بإذن الله ﴿فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى، وليُبلي المؤمنين منه بلاءً حسناً إنّ الله سميع عليم﴾، وبيّن لهم توزيع الغنائم التي تُؤخذ من الكفّار نتيجة القتال فهي أربعة أخماسٍ للمقاتلين، والخمس الباقي يتصرّف به رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ﴿واعلموا أنما غنمتم من شيءٍ فإن لله خُمُسه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان، والله على كل شيءٍ قدير﴾، ووجّههم في معاملة الأسرى وكان عليهم أن يقتلوهم، ولكن أحلّ لهم ما أخذوه من الفداء منهم ﴿ما كان لنبيٍّ أن يكون له أسرى حتى يُثخن في الأرض، تُريدون عرض الدنيا والله يُريد الآخرة، والله عزيز حكيم. لولا كتاب من الله سبق لمسّكم فيما أخذتم عذاب عظيم. فكُلوا ممّا غنمتم حلالاً طيباً واتقوا الله، إنّ الله غفور رحيم﴾.

٦ ــ واغتاظ اليهود، واغتاظ المنافقون في المدينة، وكاد كلاهما يموت غيظاً من انتصار المسلمين على قريش، حتى لم يُصدّقوا أول الأمر ذلك للتفاوت الكبير في العتاد والعدد والإمكانات، وابتدأت الأراجيف من المنافقين ومن اليهود وخان بنو قينقاع من يهود العهد، وأراد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يُؤدّبهم فشفع فيهم رأس المنافقين عبد الله بن أبي بن سلول، فاكتفى

رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بإجلائهم عن المدينة، واستدر العام، وقريش في مكة لم تنم من نزيف جراحها، وعيونها شاخصة من ألم مُصابها فأرادت أن تثأر لقتلاها وتنتقم لما ألمّ بها، واتجهت نحو المدينة، واختلفت الآراء في المدينة، هل يبقى المسلمون في مدينتهم يُدافعون عنها، ويُقاتلون أعداءهم فيها، وهم الأدرى بمداخلها أم يخرجون للقاء المهاجمين. وخرج المسلمون إلى أُحد، وخرج معهم المنافقون غير أنهم لم يلبثوا أن انسحبوا في منتصف الطريق بثلث الجيش وعلى رأسهم عبد الله بن أُبيّ. وسأل بعض الأنصار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يستعينوا بحلفائهم من يهود، فأبى ـ صلى الله عليه وسلم ـ فالمعركة بين الإيمان والكفر فما ليهود بها؟ وكاد بنو حارثة وبنو سلمة أن يتأثروا بانسحاب عبد الله بن أُبيّ بالمنافقين من الجيش فيتبعونه لولا رعاية الله لهما. . . . وتعبأ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، للقتال، ووضع على جبل الرماة خمسين من الرماة عليهم عبد الله بن جبير، وأمره وأصحابه أن يلزموا مركزهم، وألّا يُفارقوه ولو رأوا الطير تتخطّف العسكر، وكان الجبل خلف الجيش، وأمرهم أن ينضحوا المشركين بالنبل لئلا يأتوا المسلمين من ورائهم.

ودارت الدائرة في أول النهار على المشركين فولّوا مُدبرين حتى انتهوا إلى نسائهم، وحتى شمّرت النساء ثيابهنّ عن أرجلهنّ هاربات. فلما رأى رماة المسلمين هزيمة المشركين وانكشافهم

تركوا مراكزهم التي أمرهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ألّا يبرحوها. فذكّرهم أميرهم عهد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فلم يسمعوا، وظنّوا أن ليس للمشركين رجعة، فأخلوا الثغر الذي أُمروا سدّه. ودار خالد بن الوليد بفرسانه خلف المسلمين وارتقى ذلك الثغر، وعاد المشركون وأصبح المسلمون بين نارين، فدارت عليهم الهزيمة.

لقد أُصيب المسلمون فخلّفوا سبعين شهيداً على رأسهم أسد الله الحمزة بن عبد المطلب عمّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعبد الله بن جحش ابن عمّة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وحامل لواء المسلمين مصعب بن عمير، وسعد بن الربيع، وأنس بن النضر و. . . . وخلص المشركون إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فجُرح وجهه الكريم، وكُسِرت سنّه الرباعية اليمنى في الفكّ الأسفل، وهُشّمت البيضة على رأسه، . ورماه المشركون بالحجارة حتى وقع لجنبه، وسقط في حفرة من الحفر التي كان أبو عامر الفاسق قد حفرها وغطّاها، يكيد بها المسلمين. وغاصت حلقتان من حلق المغفر في وجنته. وانتهت المعركة وانسحب المشركون، وفي طريقهم إلى مكّة تلاوموا لما لم يعرجوا على المدينة وينهبوها ويسبوا الذراري، وبلغ ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فنادى في الناس، وندبهم إلى المسير إلى لقاء عدوهم وقال: «لا يخرج معنا إلّا من شهد القتال»، وقال له عبد الله بن أُبيّ: اركب معك؟ قال:

«لا». فاستجاب له المسلمون على ما بهم من جراحٍ عميقةٍ وخوفٍ شديدٍ، وبلغ المسلمون حمراء الأسد، وانسحبت قريش، ولم تجرؤ على اللقاء. ونزل الوحي وكانت سورة آل عمران يوضح صدرها المرحلة التي سبقت معركة أحد، ويُبيّن صفات اليهود، وعدم وفائهم، ونقضهم العهود، وعدم إمكانية الركون إليهم. وتهديدهم بما تمّ للكفار في غزوة بدر ﴿إن الذين كفروا لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئاً، وأولئك هم وقود النار﴾ و ﴿قد كان لكم آية في فئتين التقتا: فئة تُقاتل في سبيل الله وأخرى كافرة، يرونهم مثليهم رأي العين، والله يُؤيّد بنصره من يشاء، إنّ في ذلك لعبرةً لأولي الأبصار﴾. ﴿لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين. ومن يفعل ذلك فليس من الله في شيء﴾. ﴿ودّت طائفة من أهل الكتاب لو يُضلّونكم، وما يُضلّون إلّا أنفسهم وما يشعرون. يا أهل الكتاب لِمَ تكفرون بآيات الله وأنتم تشهدون. يا أهل الكتاب لِمَ تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحقّ وأنتم تعلمون﴾.

ويُبيّن في الجزء الثاني من السورة معركة أحد وما أصاب المسلمين بسبب التفرقة في الآراء، وعدم طاعة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وعدم التميز فيدعوهم إلى الوحدة، وطاعة رسول الله، والتميز، وعدم اتخاذ بطانة من غير المسلمين ويُذكرهم أو يُعيد إلى أفكارهم أن النصر من عند الله وحده. ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرّقوا واذكروا نعمة الله عليكم

إذ كُنتم أعداءً فألّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخواناً، وكنتم على شفا حفرةٍ من النار فأنقذكم منها كذلك يبيّن الله لكم آياته لعلكم تهتدون﴾. ﴿وأطيعوا الله والرسول لعلك تُرحمون﴾. ﴿وليُمحّص الله الذين آمنوا ويمحق الكافرين. أم حسبتم أن تدخلوا الجنّة ولمّا يعلم الله الذين جاهدوا منكم ويعلم الصابرين﴾. ﴿يا أيها الذين آمنوا لا تتّخذوا بطانةً من دونكم لا يألونكم خبالاً ودّوا ما عنتم قد بدت البغضاء من أفواههم وما تُخفي صدورهم أكبر، قد بيّنا لكم الآيات إن كنتم تعقلون. ها أنتم أُولاءِ تُحبّونهم ولا يُحبّونكم وتُؤمنون بالكتاب كلّه وإذا لقوكم قالوا آمنّا وإذا خلوا عضّوا عليكم الأنامل من الغيظ، قل موتوا بغيظكم، إن الله عليم بذات الصدور. إن تمسسكم حسنة تسؤهم وإن تُصبكم سيئة يفرحوا بها، وإن تصبروا وتتّقوا لا يضرّكم كيدهم شيئاً، إن الله بما يعملون محيط﴾. ﴿إن ينصركم الله فلا غالب لكم، وإن يخذلكم فمن ذا الذي ينصركم من بعده، وعلى الله فليتوكّل المؤمنون﴾.

ويُشعر الجماعة المسلمة أن ليس لها من أمر النصر شيء. إنما هو تدبير الله لتنفيذ قدره، من خلال جهادها. وأجرها هي على الله. وليس لها من ثمار النصر شيء من أشياء هذه الأرض. ولا لحسابها الخاص يُؤتيها الله النصر إذ يشاء. إنما لحساب الأهداف العليا التي يشاءها الله. وكذلك الهزيمة. فإنها حين تقع بناءً على جريان سنة الله، وفق ما يقع من الجماعة المسلمة من تقصير

وتفريط، إنما تقع لتحقيق غايات يُقدّرها الله بحكمته وعلمه، لتمحيص النفوس، وتمييز الصفوف، وتجلية الحقائق، وإقرار القيم، وإقامة الموازين، وجلاء السنن للمستبصرين[1].

ولا قيمة ولا وزن في نظر الإسلام للانتصار العسكري أو السياسي أو الاقتصادي، ما لم يقم هذا كله على أساس المنهج الرباني، في الإنتصار على النفس، والغلبة على الهوى، والفوز على الشهوة. وتقرير الحقّ الذي أراده الله في حياة الناس. ليكون كل نصرٍ نصراً لله ولمنهج الله. وليكون كل جهد في سبيل الله ومنهج الله. وإلّا فهي جاهلية تنتصر على جاهلية، ولا خير فيها للحياة ولا للبشرية، إنما الخير أن ترتفع راية الحقّ لذات الحقّ. والحقّ واحد لا يتعدد، إنه منهج الله وحده، ولا حقّ في هذا الكون غيره، وانتصاره لا يتمّ حتى يتمّ أولاً في ميدان النفس البشرية، وفي نظام الحياة الواقعية، وحين تخلص النفس من خطّ ذاتها في ذاتها، ومن مطامعها وشهواتها ومن أدرانها وأحقادها، ومن قيودها وأصفادها، وحين تفرّ إلى الله مُتحررةً من هذه الأثقال والأوهان، وحين تنسلخ من قوتها ومن وسائلها ومن أسبابها، لتكل الأمر كله إلى الله بعد الوفاء بواجبها من الجهد والحركة. وحين تُحكّم منهج الله في الأمر كلّه، وتعدّ هذا التحكيم هو غاية جهادها وانتصارها. حين يتمّ هذا كلّه يحتسب

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب.

الانتصار في المعركة الحربية أو السياسية أو الاقتصادية انتصاراً، في ميزان الله، وإلّا فهو انتصار جاهليةٍ على جاهليةٍ، الذي لا وزن له عند الله ولا قيمة.

ومن ثم كان ذلك الإزدواج وكان ذلك الشمول في التعقيب على المعركة التي دارت يوم أُحد في ذلك الميدان الفسيح، الذي يُعدّ ميدان القتال واحداً من جوانبه الكثيرة[1].

فقد ربط ميدان القتال بميدان النفس، وقد انتصر المسلمون على نفوسهم وتمكنوا في ملاحقة المشركين رغم ما نزل بهم، وهم الأعلون بإيمانهم ﴿ولا تهنوا ولا تحزنوا وأنتم الأعلون إن كنتم مؤمنين﴾. والذين تولّوا يوم وقعت المعركة إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا من الذنوب، ومن التجأ إلى الله واستغفر الله مما وقع فيه من ذنوب فقد انتصر، ويمكنه القتال بصورةٍ جيدة.

٧ ـ طمع من لا يستطيع الدفع عن نفسه بالمسلمين إثر معركة أُحد، ومن هؤلاء الطامعين بنو النضير إحدى الجماعات اليهودية التي كانت بينهم وبين المسلمين عهود، وهم خلفاء الخزرج. وقد ذهب إليهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ليطلب منهم المشاركة في دفع ديتي رجلين قُتلا، لما بينهم وبين المسلمين من عهود، فاستقبلوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بالبشر

---

(١) في ظلال القرآن ـ سيد قطب.

والترحاب، وجلس بجانب جدارٍ مع أصحابه ينتظر دفعهم، فهمّوا بقتله إذ صعد أحدهم ليُلقي عليه صخرةً فيخلّص المجتمع منه، على زعمه، فأوحى الله إلى رسوله ما همّ اليهود بفعله، فانتقل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من جانب الجدار مباشرةً. ولم يُنكر اليهود ما همّوا به، وبذا فقد نقضوا عهودهم، وتجهّز رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لإخراجهم، فتحصّنوا بحصونهم، وقد أمهلهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثلاثة أيام ليخرجوا من جواره، ويأخذوا أموالهم، ويُقيموا وكلاء عنهم على مزارعهم وبساتينهم، غير أن المنافقين في المدينة وعلى رأسهم كبيرهم عبد الله بن أُبيّ أرسلوا إليهم يُحرّضونهم على الرفض والمقاومة، وقالوا لهم: أن اثبتوا وتمنّعوا فإنا لن نُسلمكم، فإن قوتلتم قاتلنا معكم، وإن أُخرجتم خرجنا معكم. فتحصّن بنو النضير في حصونهم، فأمر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بقطع نخيلهم، وحرقها، فنادوا من داخل الحصون: يا مُحمّد كنت تنهى عن الفساد وتعيبه على من صنعه، فما بال قطع النخيل وحرقه؟ واستمرّ الحصار مدة ستةٍ وعشرين يوماً، وبعدها يئس اليهود من وعود المنافقين لهم، وقذف الله في قلوبهم الرعب فسألوا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الجلاء والكفّ عن دمائهم، وأن يُعاملهم كما سبق له أن عامل بني قينقاع، الحيّ الآخر من يهود، بحيث يكون لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلاّ السلاح، فأجابهم رسول الله، صلى الله عليه

وسلم، إلى ما سألوا، فكان الرجل منهم يهدم بيته، ويحمل خشبة بابه على بعيره، أو يُخربه كي لا يقع في أيدي المسلمين قائماً تام البنيان. وانتقلوا بعضهم من سار إلى خيبر، وبعضهم ارتحل إلى وادي القرى، ومنهم من اتجه إلى الشام.

ونزل الوحي يُبيّن في سورة الحشر سلوك اليهود وخوفهم الشديد ﴿هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر، ما ظننتم أن يخرجوا، وظنّوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب، يُخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار. ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذّبهم في الدنيا، ولهم في الآخرة عذاب النار. ذلك بأنهم شاقّوا الله ورسوله، ومن يُشاقّ الله فإن الله شديد العقاب﴾. ويوضّح أن قطع النخيل كان بإذن الله ﴿ ما قطعتم من لينةٍ أو تركتموها قائمةً على أُصولها فبإذن الله وليخزي الفاسقين﴾. وكان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد أعطى فيء بني النضير للمهاجرين فقط ودون الأنصار فتكلّم المنافقون في هذا الأمر، وأكثروا الحديث في هذا الشأن يلغون، وفي المدينة سمّاعون لهم، فأنزل الله ﴿وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيلٍ ولا ركاب ولكنّ الله يُسلّط رُسُله على من يشاء، والله على كلّ شيءٍ قدير. ما أفاء الله على رسوله من أهل القرى فللّه وللرسول ولذي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل كي لا

يكون دولةً بين الأغنياء منكم، وما آتاكم الرسول فخذوه وما نهاكم عنه فانتهوا، واتقوا الله، إن الله شديد العقاب﴾. وقال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، للأنصار: «إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم في هذه الغنمية.

وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم، ولم يُقسم لكم شيء من الغنيمة». فقالت الأنصار: بل نقسم من أموالنا وديارنا ونُؤثرهم بالغنيمة ولا نُشاركهم فيها، فأنزل الله ﴿للفقراء المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلاً من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله، أولئك هم الصادقون. والذين تبوّؤا الدار والإيمان من قبلهم يُحبّون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم حاجةً مما أُتوا ويُؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة، ومن يوق شحّ نفسه فأولئك هم المفلحون﴾. كما فضح مراسلة المنافقين لليهود وقولهم لهم، وواقع أمرهم الذي يُعرفون به، والذي يشتركون فيه مع اليهود ﴿ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أُخرجتم لنخرجّن معكم ولا نُطيع فيكم أحداً أبداً وإن قُوتلتم لننصرّنكم والله يشهد إنهم لكاذبون. لئن أُخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليُولنّ الأدبار ثمّ لا يُنصرون. لأنتم أشد رهبةً في صدورهم من الله، ذلك بأنهم لا يفقهون. لا يُقاتلونكم جميعاً إلّا في قُرىً مُحصنةٍ أو من وراء جُدُرٍ، بأسهم بينهم شديد، تحسبهم جميعاً وقُلوبهم شتّى، ذلك

بأنهم قوم لا يعقلون﴾.

٨ ــ وتحرّك الشرّ في نفوس يهـود، وتفجّر الغيظ، بعـد جلاء بني النضير عن المدينة إثر خيـانتهم ونقضهم عهدهم مـع المسلمين، وخـاصـةً زعـماء بني النضـير الـذين ارتحلوا إلى خيبـر إذ رأوا أن الإسلام يقوى وتتعمّق جذوره، وكلما حاولت فئة اقتلاعه خابت في مسعاها، ورُدّت خـائبةً، وازدادت قـوة الإسلام، لـذا حاول زعـماء اليهـود تحزيب الأحـزاب وجمـع قـوى الشرّ كتلةً واحـدةً والتـوجّه إلى المـدينة واقتـلاع الإسلام من جـذوره والإنتهـاء من أمره، لقد تحرّك زعماء يهود هؤلاء إلى مكّة وعـرضوا الفكـرة على قريشٍ فوجدوا أُذناً صاغيةً وتجاوباً كبيراً فضربوا موعـداً للتوجّـه إلى المدينة لا يُخلفه هؤلاء ولا هؤلاء، ثم انتقل أعيـان اليهود إلى الأعراب وقدّموا الأمر على غطفـان وعشائـرها المتعـدّدة فرأوا مـا رأوا عند قريشٍ موافقةً وحماسةً فأعلموهم بالموعد المحدّد وأخذوا عليهم عهـداً بتنفيذه، كـما انتقـل حيي بن أخـطب أحـد زعـماء هؤلاء اليهود الذين يغلي الحقد في قلوبهم ويكاد يقتلهم، إلى ديار بني قريظة إحـدى فرق اليهـود في المدينـة واجتمع مـع كعب بن أسد القرظي، صاحب عقد بني قريظة وعهـدهم، وحرضـه على نقض عهده فوافقه بعد تمنّع وأيّده بعـد شيءٍ من عناد، وعـاهده أن ينقض ما كان بينـه وبين رسـول الله من عهد، وجـاء الموعـد المُحدّد ووصلت فيه قريش، ووصل فيه الأعراب، ونقضت بنـو قريظة العهد، وأحاطوا بالمدينة وكان المسلمون قد حفروا الخندق

شمال مدينتهم حيث هناك الجهة المكشوفة وقد جاءت من ناحيتها قريش والأعراب. وكثر البلاء على المسلمين، وعظُمت المصيبة، واشتدّ الخوف، ورأى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يُفرّق الأحزاب وأتت إرادة الله، وذهبت قريش، وانسحبت غطفان، وبقيت قريظة لأن ديارها على أطراف المدينة، فدعا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، المسلمين السير إلى بني قريظة إذ قال لهم: «لا يُصلّينّ أحد العصر إلاّ في بني قريظة» فأسرع المسلمون وأدرك بعضهم العصر في الطريق فقال بعضهم لا نُصلّي حتى نأتيها، وقال بعضهم بل نُصلّي لم يُرد منا ذلك فذُكر ذلك للنبيّ صلى الله عليه وسلم فلم يُعنّف واحداً منهم. ونزل بنو قريظة على حكم سعد بن معاذ سيد الأوس حلفاء بني قريظة، فحكم أن تقتل المقاتلة وأن تسبى النساء والذرية وأن تقسم أموالهم.

وجاء الوحي معقباً على هذه الأحداث ومُفنّداً إرجافات المنافقين وشائعاتها في آيات من سورة الأحزاب (٩ ـ ٢٧) فيصوّر إطباق الأحزاب على المدينة وما أرسل الله لهم ﴿يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها، وكان الله بما تعملون بصيراً. إذا جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذا زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر، وتظنّون بالله الظنونا. هنالك ابتلي المؤمنون وزُلزلوا زلزالاً شديداً﴾، ويُبينّ للمؤمنين شائعات المنافقين ﴿وإذ يقول

المنـافقون والـذين في قلوبهم مرض مـا وعـدنـا الله ورسـولـه إلاّ غُـروراً. وإذ قـالت طـائفـة منهم يـا أهـل يثــرب لا مُقـام لكم فارجعوا، ويستأذن فريق منهم النبيّ يقولون إنّ بُيـوتنا عـورة وما هي بعورةٍ إن يُريدون إلاّ فراراً. ولو دُخلت عليهم من أقطارهـا ثمّ سُئلوا الفتنـة لأتوهـا وما تلبّثـوا بهـا إلا يسيـراً. ولقـد كـانـوا عاهدوا الله من قبل لا يُولّون الأدبار، وكان عهدالله مسؤولاً. قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من المـوت أو القتل وإذن لا تُمتّعـون إلاّ قليـلاً. قل من ذا الـذي يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة، ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً. قد يعلم الله المُعوِّقين منكم والقائلين لإخـوانهم هلُمّ إلينا، ولا يأتون البأس إلاّ قليلاً. أشحّةٌ عليكم، فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالـذي يُغشى عليه من المـوت، فإذا ذهب الخـوف سلقوكم بألسنةٍ حدادٍ أشحّةً على الخـير، أولئكِ لم يُؤمنـوا فأحبط الله أعمالهم، وكان ذلـك على الله يسيـراً. يحسبون الأحـزاب لم يـذهبوا، وإن يـأت الأحزاب يـودّوا لو أنهم بـادون في الأعـراب يسألون عن أنبـائكم، ولو كـانوا فيكم مـا قاتلوا إلاّ قليـلاً. لقد كـان لكم في رسول الله أسـوة حسنة لمن كـان يرجـو الله واليـوم الآخـر وذكر الله كثيـراً﴾. وفي الوقت نفسـه يتكلّم عن المؤمنـين ﴿ولما رأى المؤمنون الأحـزاب قالـوا هذا مـا وعدنـا الله ورسولـه وصدق الله ورسولـه، وما زادهم إلاّ إيمـاناً وتسليـماً. من المؤمنين رجال صَدقـوا ما عـاهدوا الله، فمنهم من قضى نحبـه ومنهم من

ينتظر وما بدّلوا تبديلاً. ليجزى الله الصادقين بصدقهم ويُعذّب المنافقين إن شاء أو يتوب عليهم، إنّ الله كان غفوراً رحيماً﴾ ويُوضّح أن تشتيت الأحزاب ورجوعهم كان من الله وبإرادته ﴿وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً، وكفى الله المؤمنين القتال، وكان الله قوياً عزيزاً﴾. ولم يترك يهود بني قريظة وعاقبتهم ﴿وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً. وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها، وكان الله على كل شيءٍ قديراً﴾. بل كان الوحي يُوجّه المسلمين فلما رجع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من الخندق، ووضع السلاح، واغتسل أتاه جبريل عليه السلام فقال: قد وضعت السلاح والله ما وضعناه فاخرج إليهم قال فإلى أين؟ قال: ها هنا وأشار إلى بني قريظة فخرج النبيّ صلى الله عليه وسلم إليهم[1].

٩ ــ وأُري رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في منامه أنه والمسلمين معه دخلوا مكّة مُحلّقين، ومُقصّرين وكانوا قد مُنعوا منذ الهجرة من دخول مكّة حتى في الأشهر الحرم التي كان الجاهليون يُعظّمونها فيُحرّمون فيها القتال ويحولون دون منع أحدٍ من دخول الحرم، ويلتقى الرجل مع عدوّه الذي قتل أباه

---

(١) صحيح البخاري باب المغازي.

أو أخـاه فلا يُحـاول الثأر منـه أو الصدّ لـه عن القدوم إلى البيت الحرام، وقد خالفت قريش تلك التقاليد الثابتة عندها، وصدّت المسلمين عن زيارة البيت. وفي العام السادس سـار رسول الله، صلى الله عليه وسلم، مـع ألف وخمسمائـة لأداء العمرة، وقـد أحرموا من ذي الحليفـة، وساقـوا أمامهم الهـدي إشارةً إلى أنهم جاءوا مُعظمّين للبيت ولا يُريـدون حربـاً. وتخلّف الأعراب عن السير مع ركب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إذ خافـوا من صدّ قريشٍ لهم وقتـالهم. وحالت قـريش دون وصول المسلمـين إلى مكّة وتأديتهم مناسك العمرة رغم وضوح مقصدهم. فأرسل رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى قريش عثمـان بن عفان، رضي الله عنه، ليحمل إليها قصد المسلمين من القدوم، فـدخل عثمان في جوار أبان بن سعيد بن العاص الذي لقيه خارج مكـة فأدّى عثمان رسـالة رسـول الله، صلى الله عليـه وسلم، غير أن قـريشاً قـد احتبست عثمان، وطلبت منـه أن يطوف بـالبيت إن رغب، فأبى وقال: ما كنت لأفعل حتى يطوف رسول الله، صـلى الله عليـه وسلم، وظنّ رسـول الله، صـلى الله عليـه وسلم، أن قريشاً قد قتلت عثمان بن عفـان فبايـع المسلمون جميعـاً رسولهم الكريم تحت الشجرة على الثبات وقتال قريش، فكـان لهذا أثـره الكبـير في النفوس في وحـدة الكلمة، ووحـدة الصفّ، والثبات على الحقّ، ومقارعة الباطـل. ثم جرت المفـاوضات، وتمّ صلح الحديبية بين رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقريش ـ كما هـو

موضّح في كتب السيرة ـ ولم يرتح المسلمون لهذا الصلح لما رافقه من أحداث، ولما جاء فيه من أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يردّ إلى قريش من أسلم منها، على حين أنها غير مُلزمةٍ بردّ من جاء إليها من المسلمين، ولعلّ عمر بن الخطاب، رضي الله عنه، كان أكثر المُحتجين أو غير المرتاحين، وقد كلّم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وكلّم أبا بكر، حتى ذكّره أبو بكر بأنها النبوة، وأنه رسول الله و. . . . . . وقد بلغ من عدم راحة المسلمين أن تأخّروا عن التحلّل عندما أمرهم رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى أن أشارت أم المؤمنين أم سلمة، رضي الله عنها، على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يتحلّل قبلهم، فعندما فعل سارعوا إلى التنفيذ، وانتهى الأمر، ورجع رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى المدينة مع المسلمين، وتفرّغ لخضد شوكة اليهود على الجبهة الشمالية إذ فتح خيبر، ثم جاء في العام القادم فأدّى عمرة القضاء مع المسلمين بناءً على صلح الحديبية.

جاء الوحي مُعقباً على هذه الأحداث ونزلت سورة الفتح مُبشّرة بالفتح ﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مُبيناً ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخّر ويُتمّ نعمته عليك ويهديك صراطاً مستقيماً. وينصرك الله نصراً عزيزاً﴾. ويقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «نزل عليّ البارحة سورة هي أحبّ إليّ من الدنيا وما فيها: ﴿إنّا فتحنا لك فتحاً مُبيناً ليغفر لك الله ما تقدّم من ذنبك

وما تأخر﴾»[1]، ويُبيّن ما منّه الله على المؤمنين بما أنزل عليهم من سكينةٍ فألزمهم الطاعة، ويعدهم بمغفرة من عنده ويمدّهم بدعم من جند السماء ﴿هو الذي أنزل السكينة في قلوب المؤمنين ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم، ولله جنود السموات والأرض، وكان الله عليماً حكيماً﴾ ويفضح المخلفين وظنونهم وأعذارهم التي يحتجّون بها، ويُوجّه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إلى ما يجب أن يكون موقفه من هؤلاء المُخلّفين ﴿سيقول لك المخلّفون من الأعراب: شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا، يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، قل فمن يملك لكم من الله شيئاً إن أراد بكم ضرّاً أو أراد بكم نفعاً، بل كان الله بما تعملون خبيراً. بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبداً وزُيّن ذلك في قلوبكم وظننتم ظنّ السوء وكنتم قوماً بوراً﴾. ﴿سيقول المخلّفون إذا انطلقتم إلى مغانم لتأخذوها ذرونا نتّبعكم، يُريدون أن يُبدّلوا كلام الله، قل لن تتبعونا، كذلكم قال الله من قبل، فسيقولون بل تحسدوننا، بل كانوا لا يفقهون إلا قليلاً. قل للمخلّفين من الأعراب ستُدعون إلى قوم أولي بأس شديدٍ تُقاتلونهم أو يُسلمون، فإن تُطيعوا يُؤتكم الله أجراً حسناً، وإن تتولّوا كما تولّيتم من قبل يُعذّبكم الله عذاباً أليماً﴾. ثم يُوضّح الأعذار الحقيقية للتخلّف ﴿ليس على الأعمى حرج ولا على

---

(١) أخرجه البخاري والترمذي والنسائي من طرق عن مالك رحمه الله.

الأعـرج حرج ولا عـلى المريض حـرج، ومن يُطع الله ورسـولـه يُدخله جنّاتٍ تجـري من تحتها الأنهار، ومن يتـولّ يُعذّبـه عذابـاً أليـماً﴾. وأعلن الله رضاءه عن المؤمنـين الـذين بـايعـوا رسـولهم الكريم تحت الشجرة ﴿لقـد رضي الله عن المؤمنين إذ يُبـايعونـك تحت الشجـرة فعلم ما في قلوبهم فـأنزل السكينـة عليهم وأثابهم فتحاً قريباً. ومغانم كثيرة يأخـذونها، وكان الله عـزيزاً حكيـماً. وعدكم الله مغانم كثيرةً تأخـذونها فعجّل لكم هـذه وكفّ أيدي النـاس عنكم ولتكون آيـةً للمؤمنين ويهـديكم صراطـاً مستقيماً. وأخـرى لم تقدروا عليهـا قد أحـاط الله بها، وكـان الله على كـل شيء قديراً. ولو قاتلكم الذين كفروا لـولّوا الأدبـار ثم لا يجدون ولياً ولا نصيراً. . . . .﴾. وصدق الله رسوله الرؤيا بالحقّ، فدخل مع المسلمين في السنة التالية مكة وأدّى العمرة ثم لم يلبث أن تمّ الفتح. وظهرت آثار صلح الحديبية عظيمةً على عكس ما تصوّره المسلمون، إذ قويت مهابـة المسلمين في عيـون القبائـل، وخفت صوت المنافقين في المدينة وقلّ شأنهم، وأسـرع المخلّفون للإعتذار، ثم فُتحت خيبر، ووفدت وفود القبائل العربية من كل جهةٍ إلى المدينة، ثم فُتحت مكة وجاء نصر الله ﴿لقد صدق الله رسوله الـرؤيا بـالحقّ لتدخلّن المسجـد الحرام إن شـاء الله آمنين مُحلّقين رؤوسكم ومُقصّرين لا تخافون، فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحاً قريباً﴾.

توسّعت الدولة الإسلامية بعد فتح خيبر، ومكة، وقدوم وفود

العرب فناوشت الـروم في مُؤتة واحتكت مـع قضاعـة في معركـة ذات السلاسل، وتحرّك الروم في الشمال وحرّكوا العرب المتنصرة فأراد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، أن يتهيّأ للقتال وقد علم بتحشّد الروم، واستنفـر أهل مكـة والقبائـل الأخرى والمسلمـين جميعاً، وأعلمهم أن يُريد الروم، ولم يُـورّ كعادتـه، وذلك لأخـذ الأهبة والاستعداد اللازم، وخاصةً أنه قد مضى ثمانية أشهر على المسلمين ولم يغزوا، كـما أن الناس كـانوا في وقتٍ فيـه عُسرة من جدب الأرض وقلة النتاج، ومُحلٍ في السماء، ونقصٍ في العشب مما يجعل الاستعداد للجهاد صعباً، كما جاء في وقتٍ زاد فيه الحرّ واشتدّ، وأينعت الثمـار، ورُغب في الـظلال الأمـر الـذي يجعـل النفـوس تميل إلى الـراحـة وتـطلب هنـاء العيش، ولهـذا تـطلب النفـوس المريضـة عدم القتـال وترغب عنـه، وتستعـلي النفـوس المؤمنـة على مـا في هذه الـدنيا من نعيمٍ زائـلٍ وترغب في نعيمٍ دائمٍ في الآخرة.

١٠ ـ وتجهّـز المسلمون وتبـرّع الموسـرون في التجهيـز، وانـطلق الجيش، ووصـل إلى تبوك ولم يجـد أثراً لتجمّـع الـروم، وعـاد، وجـاء المُخلّفـون يعتـذرون ويكـذبـون ويـدّعـون إدعـاءات وافتراءات، ووجد الرسول أن المنافقين قد بنوا مسجـداً ضراراً. ففضح الوحي هذا كله. واعترف ثلاثة من المخلّفـين بذنـوبهم، فتاب الله عليهم بعد أن خضعـوا لاختبارٍ عـظيمٍ، منه مقـاطعة المسلمـين لهم، واعتزالهم نسـاءهم، واستعلاؤهم عـلى عـروض

الروم. ونزلت آيات من سورة التوبة تفضح المخلّفين وأعذارهم غير الصحيحة ﴿لو كان عرضاً قريباً وسفراً قاصداً لاتّبعوك ولكن بعُدت عليهم الشُّقّة، وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يُهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون﴾ ويعتب الله على رسوله لِمَ أَذن لهم، إذ كان عليه ألاّ يأذن لهم ليعرف صدقهم من كذبهم ﴿عفا الله عنك لِمَ أذنت لهم حتى يتبينّ لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين﴾ وتُبينّ الآيات صفاتهم وعدم قدرتهم على القتال بل على العكس يُضعفون من معنويات المسلمين لخوفهم الشديد ﴿إنما يستأذنك الذين لا يُؤمنون بالله واليوم الآخر وارتابت قلوبهم فهم في ريبهم يتردّدون. ولو أرادوا الخروج لأعدّوا له عدةً ولكن كره الله انبعاثهم فثّبطهم وقيل اقعدوا مع القاعدين. لو خرجوا فيكم ما زادوكم إلاّ خبالاً ولأوضعوا خلالكم يبغونكم الفتنة، وفيكم سمّاعون لهم، والله عليم بالظالمين. لقد ابتغوا الفتنة من قبل وقلّبوا لك الأمور حتى جاء الحقّ وظهر أمر الله وهم كارهون. ومنهم من يقول إئذن لي ولا تفتني، ألا في الفتنة سقطوا، وإن جهنّم لمحيطة بالكافرين. إن تُصبك حسنة تسؤهم، وإن تُصبك مصيبة يقولوا قد أخذنا أمرنا من قبل ويتولّوا وهم فرحون﴾. ﴿ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون. لو يجدون ملجأً أو مغاراتٍ أو مُدّخلاً لولّوا إليه وهم يجمحون. ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أُعطوا منها رضوا وإن لم يُعطوا منها إذا هم يسخطون﴾ وكثرت الآيات

التي تفضح المنافقين والمخلّفين، وتظهر ما يجول في نفوسهم، واتخاذهم مسجداً، ضراراً للتفريق بين المسلمين. بعدئذ توضّح الآيات قبول الله لتوبة المؤمنين والذين كادت قلوبهم تزيغ ثم تغلّبوا على أهوائهم وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا واعترفوا بذنبهم وصدقوا في قولهم وبعد أن خضعوا لدرسٍ قوي ﴿ لقد تاب الله على النبي والمهاجرين والأنصار الذي اتبعوه في ساعة العُسرة من بعد ما كاد يزيغ في قلوب فريقٍ منهم ثم تاب الله عليهم، إنه بهم رؤوف رحيم. وعلى الثلاثة الذين خُلّفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنّوا أن لا ملجأ من الله إلاّ إليه ثمّ تاب عليهم ليتوبوا، إنّ الله هو التوّاب الرحيم﴾. وتكثر الآيات في هذا الموضع التي تُوجّه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بأن لا يأذن للذين يستأذنون في القعود عن الجهاد، ولا يطمع في أموال بعضهم تبرعاً ولا في أولادهم تنشئةً، وعدم الاستغفار لهم، وعدم الرحمة بهم فإنهم كافرون، وعدم السماح لهم بالخروج معه بعدئذٍ، وعدم الصلاة على أحدٍ مات منهم أبداً وعدم القيام على قبره، وعدم سماع أعذار الذين يتخلّفون عن الجهاد، ولا أيمانهم لأنهم يحلفون كذباً.

وتدعو المؤمنين إلى الإسراع للجهاد في سبيل الله إذا ما دُعوا وأن ينفروا خفافاً وثقالاً ولا يثّاقلون إلى الأرض راضين بالحياة الدنيا من الآخرة، وعدم الاعتماد على المنافقين والذين يُحبّون القعود ويثّاقلون عن الجهاد. وعدم الرضا عن الكافرين

والمنافقين وإطاعة الله والرسول، والنفقة في سبيل الله، وتُذكّرهم بأن الله قد أعدّ لهم جنّاتٍ تجري من تحتها الأنهار، على حين أن الكافرين والمنافقين لهم جهنم وساءت مصيراً.

ولم يكن العتب على رسول الله، صلى الله عليه وسلم، والتوجيه مُقتصراً على الغزوات وإنما كان إثر كلّ حادثةٍ تحدث في المجتمع الإسلامي وتكون حديث القوم سواء أكانت خارج المدينة في الغزو كموضوع المنافقين وحادثة الإفك أم داخل المدينة كطلاق زيدٍ لزينب رضي الله عنها وزواج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، من زينب، وحتّى المرأة تختلف مع زوجها فيكون لها شأن، ويُوجّه الوحي المجتمع لطريقٍ يسير عليها ويترك العادات والتقاليد الجاهلية التي كانت سائدة فيه.

١١ ـ إثر غزوة بني المصطلق والناس في طريق العودة اختلف رجل من جهينة حليف للأنصار مع رجلٍ من غفار حليف للمهاجرين فدعوا بدعوى الجاهلية إذ نادى أحدهما يا لكنانة وصرخ الثاني يا للأنصار، فثارت الحمّية في بعض النفوس وكادت تقع فتنة لولا أن أسرع رسول الله، صلى الله عليه وسلم إلى ذلك المكان مُستنكراً ما حدث وقال: «ما بال دعوى الجاهلية، دعوها فإنها مُنتنة، من دعا بدعوى الجاهلية كان من جُثا جهنّم، وإن صلّى وصام وزعم أنه مسلم» وقد انتهت الفتنة وتنازل الجهنّي عن حقّه في الضرب. غير أن عبد الله بن أُبيّ كبير

المنافقين قد غضب وساءه زوال الفتنة فقال في رهطٍ من قومه: أو قد فعلوها، قد نافرونا وكاثرونا في بلادنا، والله ما أعُدّنا وجلابيب قريش إلّا كما قال الأول: سمّن كلبك يأكلك، أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ. ووصل أمر مقالته إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، واهتزّ الركب وأنكر ابن أُبيّ مقالته وحلف الأيمان لقومه الأنصار ولرسول الله، صلى الله عليه وسلم، أنه ما قال مما أُشيع شيئاً. ومع أن ابنه عبدالله بن عبدالله قد وقف موقف المسلم الصادق فمنع أباه من أن يدخل المدينة حتى يأذن له رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأنه الذليل وأن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هو العزيز. وسأل عبد الله بن عبد الله رسول الله، صلى الله عليه وسلم، إن كان يُريد قتل أبيه فليأمره أن يُؤدّي هو هذه المهمّة إذ يخشى إن قتله غيره أن تثور في نفسه حميّة الجاهلية فيقتل قاتل أبيه، فيكون قد قتل مسلماً بمنافق، ويدخل هو النار.

وجاء الوحي، وفضح المنافقين، وأكدّ صدق ما نُقل عنهم، وأنهم كاذبون، فكانت آيات سورة (المنافقون) فاضحةً تصرّفاتهم وأقوالهم وكذبهم ﴿هم الذين يقولون لا تُنفقوا على من عند رسول الله حتّى ينفضّوا، ولله خزائن السموات والأرض ولكنّ المنافقين لا يفقهون. يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجنّ الأعزّ منها الأذلّ، ولله العزّة ولرسوله وللمؤمنين ولكنّ المنافقين لا يعلمون﴾.

١٢ ـ وإثر غزوة بني المصطلق نفسها أُشيعت حادثة الإفك عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، وتولّى رأس المنافقين عبد الله بن أُبيّ كِبرها، ولكن المسلمين أنكروا ذلك، وجاء الوحي مُكذّباً المنافقين، مُبرّئاً أم المؤمنين، مُوجّهاً المسلمين ﴿إنّ الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم، لا تحسبوه شرّاً لكم، بل هو خير لكم، لكل امرىءٍ منهم ما اكتسب من الإثم، والذي تولّى كبره منهم له عذاب عظيم، لولا إذ سمعتموه ظنّ المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً، وقالوا: هذا إفك مُبين، لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذا لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون﴾.

١٣ ـ وكان أبو بكر الصّديق، رضي الله عنه، يُنفق على مسطح، فلما وقع مسطح في حادثة الإفك، وتكلّم فيها. قال أبو بكرٍ، رضي الله عنه،: والله لا أُنفق على مسطح شيئاً أبداً، فأنزل الله سبحانه وتعالى في سورة النور ﴿ولا يأتل أولو الفضل منكم والسعة أن يُؤتوا أُولي القربى والمساكين والمهاجرين في سبيل الله، وليعفوا وليصفحوا، ألاّ تُحبّون أن يغفر الله لكم، والله غفور رحيم﴾ فقال أبو بكرٍ، رضي الله عنه، بعد ذلك: بلى والله، إنّي لأحبّ أن يغفر الله لي. فأرجع إلى مسطحٍ نفقته التي كان يُنفقها عليه، وقال: والله لا أنزعها منه أبداً.

١٤ ــ زوّج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ابنة عمته زينب بنت جحش من مولاه زيد بن حارثة غير أنّ هذا الزواج لم يستمرّ، وطلّق زيد زوجه زينب، وتزوّج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، زينب بعدئذٍ فتكلّم الناس، وطالت الألسن إذ كيف يتزوّج رجل زوجة ابنه، إذ كانت الجاهلية تعدّ المتبنَّى ابناً للمتبنِّي، فيقولون زيد بن محمد، واقتضت حكمة الله أن تُلغى فكرة التبنّي، وأن يكون رسول الله، صلى الله عليه وسلم، هو ساحة التجربة لما له من مكانةٍ، فنزلت آيات من سورة الأحزاب تُبيِّن هذا ﴿ما جعل الله لرجلٍ من قلبين في جوفه، وما جعل أزواجكم اللائي تُظاهرون منهنَّ أُمّهاتكم، وما جعل أدعياءكم أبناءكم، ذلكم قولكم بأفواهكم، والله يقول الحقّ وهو يهدي السبيل. ادعوهم لآبائهم هو أقسط عند الله، فإن لم تعلموا آباءهم فإخوانكم في الدين ومواليكم، وليس عليكم جناح فيما أخطأتم به ولكن ما تعمّدت قلوبكم، وكان الله غفوراً رحيماً﴾. ﴿وما كان لمؤمنٍ ولا مؤمنةٍ إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم، ومن يعص الله ورسوله فقد ضلّ ضلالاً مبيناً. وإذ تقول للذي أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتُخفي في نفسك ما الله مُبديه وتخشى الناس والله أحقّ أن تخشاه، فلما قضى زيد منها وطراً زوّجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهنّ وطراً، وكان أمر الله مفعولاً﴾.

١٥ ـ واختلف أوس بن الصامت وكان شيخاً كبيراً قد ساء خلقه مع زوجه خويلة بنت ثعلبة فقال لها كما كان شائعاً في الجاهلية: أنت عليّ كظهر أُميّ، أي حرّمها على نفسه، ولكن لم يُطلّقها فتبين منه وتجد لنفسها حلاً، ولا هي زوج له تقوم بينهما العلاقات الزوجية. ولكنه جاء يريدها لنفسه فامتنعت منه وذهبت إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقصّت له قصّتها مع زوجها فأنزل الله وحياً رسم فيه الطريق للمسلمين في مثل هذه الحالة الزوجية وكان صدر سورة المجادلة ﴿قد سمع الله قول التي تُجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله، والله يسمع تحاوركما، إنّ الله سميع بصير. الذين يُظاهرون منكم من نسائهم ما هُنّ أُمّهاتهم، إنّ أُمّهاتهم، إلّا اللائي ولدنهم، وإنّهم ليقولون مُنكراً من القول وزوراً، وإن الله لعفوّ غفور.. والذين يُظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبةٍ من قبل أن يتماسّا، ذلكم تُوعظون به، والله بما تعملون خبير. فمن لم يجد فصيام شهرين مُتتابعين من قبل أن يتماسّا، فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً، ذلك لتُؤمنوا بالله ورسوله. وتلك حدود الله، وللكافرين عذاب أليم﴾.

١٦ ـ وعندما أراد رسول الله، صلى الله عليه وسلم، السير إلى مكّة أطلع بعض صحابته على خطّته على حين كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، يُوري عن وجهته، فأراد أحدهم وهو حاطب بن أبي بلتعة أن تكون له يدّ عند قريش، فأرسل لهم

رسالةً مع امرأةٍ يُخبرهم بما عزم عليه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقد روى البخاري في المغازي، ومسلم في صحيحه عن عليّ بن أبي طالب قال: بعثني رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وأبا مرثد والزبير بن العوّام، وكلّنا فارس، وقال: انطلقوا حتى تأتوا روضة خاخ فإنّ بها امرأةً من المشركين معها كتاب من حاطب بن أبي بلتعة إلى المشركين. فأدركناها تسير على بعير لها حيث قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقلنا: الكتاب؟ فقالت ما معي كتاب. فأنخناها فالتمسنا فلم نر كتاباً. فقلنا: ما كذب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لتُخرجنَّ الكتاب أو لنُجردنّك. فلما رأت الجد أهوت إلى حجزتها، وهي مُحتجزة بكساء، فأخرجته. فانطلقنا به إلى رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال عمر: يا رسول الله، قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضربن عنقه. فقال النبي، صلى الله عليه وسلم: «ما حملك على ما صنعت؟». قال حاطب: والله ما بي إلّا أن أكون مؤمناً بالله ورسوله، صلى الله عليه وسلم، أردت أن تكون لي عند القوم يد. يدفع الله بها عن أهلي ومالي، وليس أحد من أصحابك إلّا له هناك من عشيرته من يدفع الله به أهله وماله. فقال: «صدق لا تقولوا إلّا خيراً». فقال عمر: إنّه قد خان الله ورسوله والمؤمنين، فدعني فلأضربن عنقه. فقال: «أليس من أهل بدر؟ لعلّ الله اطلع إلى أهل بدرٍ فقال: اعملوا ما شئتم فقد وجبت لكم الجنّة أو قد غفرت لكم» فدمعت عينا

عمر، وقال: الله ورسوله أعلم. فأنزل الله صدر سورة الممتحنة ﴿يا أيّها الذين آمنوا لا تتخذوا عدوّي وعدوّكم أولياء تُلقون إليهم بالمودة وقد كفروا بما جاءكم من الحقّ يُخرجون الرسول وإياكم أن تُؤمنوا بالله ربكم إن كنتم خرجتم جهاداً في سبيلي وابتغاء مرضاتي، تسرون إليهم بالمودة وأنا أعلم بما أخفيتم وما أعلنتم، ومن يفعله منكم فقد ضلّ سواء السبيل. إن يثقفوكم يكونوا لكم أعداءً ويبسطوا لكم أيديهم وألسنتهم بالسوء وودّوا لو تكفرون. لن تنفعكم أرحامكم ولا أولادكم يوم القيامة يفصل بينكم، والله بما تعملون بصير﴾.

١٧ ـ وبعد صلح الحديبية، ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، والمسلمون عائدون جاءته نساء مؤمنات يطلبن منه الهجرة إلى المدينة والالتحاق بالركب الإسلامي والصفّ الإسلامي، وجاءت قريش تطلب ردّهنّ تنفيذاً لبند المعاهدة «على ألا يأتيك منا أحد وإن كان على دينك إلّا ردّدته إلينا» ولكن لم يرد في النصّ ما يُشير إلى شمول النساء، وفي الوقت نفسه لم يرد ذكر النساء أثناء المناقشة لإبرام معاهدة الصلح، فنزلت آيتان من سورة الممتحنة ترسم للمسلمين الطريق ﴿يا أيها الذين آمنوا إذا جاءكم المُؤمنات مُهاجراتٍ فامتحنوهنّ، الله أعلم بإيمانهنّ، فإن علمتموهنّ مُؤمناتٍ فلا ترجعوهن إلى الكُفّار، لا هُنّ حلّ لهم ولا هم يحلّون لهنّ، وآتوهم ما أنفقوا، ولا جُناح عليكم أن تنكحوهنّ إذا آتيتموهنّ أُجورهنّ، ولا

تمسكوا بعصم الكوافر واسألوا ما أنفقتم وليسألوا ما أنفقوا، ذلكم حكم الله، يحكم بينكم، والله عليم حكيم. وإن فاتكم شيء من أزواجكم إلى الكفّار فعاقبتم فآتوا الذين ذهبت أزواجهم مثل ما أنفقوا، واتقوا الله الذي أنتم به مؤمنون﴾. وكان امتحان المهاجرات التحري عن سبب الهجرة بحيث لا يكون تخلّصاً من زواجٍ مكروهٍ، ولا طلباً لمنفعةٍ، ولا عشقاً لرجلٍ من المسلمين في دار الهجرة، حيث كانت المرأة الممتحنة تقول: بالله ما خرجت من بُغض زوجٍ، وبالله ما خرجت رغبةً عن أرضٍ إلى أرض، وبالله ما خرجت التماس دنيا، وبالله ما خرجت إلّا حبّاً لله ورسوله.

١٨ ــ ولا يتجاوز الوحي ما كان يحدث في بيت النبوة وقصة التحريم معروفة إذا أنزل الله سبحانه وتعالى: ﴿يا أيّها النبيّ لِمَ تُحرّم ما أحلّ الله لك تبتغي مرضاة أزواجك والله غفور رحيم. قد فرض الله لكم تحلّة أيمانكم والله مولاكم وهو العليم الحكيم. وإذ أسرّ النبيّ إلى بعض أزواجه حديثاً فلمّا نبّأت به وأظهره الله عليه عرّف بعضه وأعرض عن بعض فلما نبّأها به قالت من أنبأك هذا قال نبّأني العليم الخبير. إن تتوبا إلى الله فقد صغت قلوبكما وإن تظاهرا عليه فإنّ الله هو مولاه وجبريل وصالح المؤمنين والملائكة بعد ذلك ظهير. . . . .﴾.

الفَصَلُ الثّاني

الإقتداء خلال التّاريخ الإسْلاميّ

ضربت أمثلةً على العتب على النبيّ، صلى الله عليه وسلم، والتوجيه الدائم، وتصحيح مسيرة المسلمين، وكان التوجيه مُستمرّاً في كلّ قضيةٍ، والتذكير دائماً في كلّ موضوعٍ يرسم المنهج ويُوضّح الخطّ، وبقي هذا حتى توفي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حيث انقطع الوحي، وتوقّف التوجيه العلوي، وأصبح لزاماً على المسلمين بحث كلّ قضيةٍ، ودارستها على أُسسٍ ثابتةٍ واضحةٍ. وقد وضّح رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ذلك لأمته قبل وفاته وأبان لهم المقياس الذي يجب أن يقيسوا به أُمورهم ومُشكلاتهم. عن العرباض بن سارية، رضي الله عنه، أنه قال: وعظنا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، موعظةً ذرفت منها العيون ووجلت منها القلوب، قلنا: يا رسول الله إن هذه لموعظة مُودّعٍ فماذا تعهد إلينا؟ قال: «قد تركتكم على البيضاء ليلها كنهارها لا يزيغ عنها بعدي إلا هالك، ومن يعش منكم فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بما عرفتم من سنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديين، وعليكم بالطاعة وإن عبداً حبشياً، عضّوا عليها بالنواجذ، فإنما المؤمن كالجمل الأنف حيثما انقيد

انقــاد»[1]. وعن مالـك بن أنس مرســلاً قال: قــال رســول الله، صــلى الله عليـه وسلم،: «تــركت فيكم أمـرين لن تضلّوا مــا تمسّكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله»[2]. إذن فكلّ قضيّة تُناقش على أساس الكتاب والسنة، فإن لم يجد العلماء في الكتاب والسنة المسألة التي يُـريدون قـاسوا مسـألةً عـلى مسألـةٍ أو أعملوا رأيهم واستنبطوا أحكاماً لا تُخالف في جوهرها شيئاً من الإسـلام، وبذا بقي الإسلام الركيـزة الأساسيـة التي يستند عليهـا الحكم، فكلّ مُعضلةٍ تُبحث على أساسه، وكلّ مُشكلةٍ لا يمكن أن تُحلّ إلاّ إذا نُظر إليها بمنظارٍ إسلامي.

أيام الراشدين:

لم تكن تمرّ قضيّة دون عرضها على الكتاب والسنـة، والخلفاء الـراشدون رضي الله عنهم أدرى النـاس بهذا، والمحـاولة دائمـة للتأسّي برســول الله، صلى الله عليـه وسلم، ولنذكـر بعض هذه الأحداث.

١ ــ توفي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وبعث أُسامة الذي جهّـزه رسول الله، صــلى الله عليـه وسلم، لم يتحـرّك، فلما بلغ

---

(١) مسند أحمد ٤/ ١٢٦.

(٢) المـوطأ ٢/ ٨٩٩، صحيـح الجامـع الصغـير ٣/ ٣٩ بـرقم ٢٩٣٤، مشكـاة المصابيح ١/ ٦٦ رقم ١٨٦.

العـرب وفاة رسـول الله، صلى الله عليـه وسلم، وارتدّ منهـا من ارتدّ عن الإسلام؛ قال أبو بكرٍ لأُسامة: (انقذ في وجهـك الذي وجّهـك فيه رسـول الله، صلى الله عليـه وسلـم)، وأخـذ النـاس بالخروج وعسكروا في موضعهم الأول، وخرج بريدة باللواء حتى انتهى إلى معسكـرهم الأول. فشقّ ذلك عـلى كبـار المهـاجـرين الأولين، ودخل على أبي بكر عمر وعثمان وأبـو عبيدة وسعـد بن أبي وقّـاص وسعيد بن زيـد رضي الله عنهم، فقالـوا: يـا خليفـة رسول الله، إن العرب قد انتقضت عليك من كلّ جانبٍ، وإنك لا تصنـع بتفريق هـذا الجيش المنتشر شيئاً، اجعلهم عـدّة لأهل الردّة ترمي بهم في نحورهم، وأُخرى: لا نأمن على أهل المدينـة أن يُغار عليها وفيها الذراري والنسـاء، ولو تـأخرّت لغـزو الروم حتى يضـرب الإسلامي بجـرانـه[1]، ويعـود أهـل الـردّة إلى مـا خرجوا منه أو يُفنيهم السيف ثم تبعث أسامة حينئذٍ فنحن نـأمن الروم أن تزحف إلينا.

فلما استـوعب أبو بكـرٍ كلامهم قـال: هل منكم أحـد يُـريـد أن يقول شيئاً؟ قالوا: لا، قد سمعت مقالتنا. فقال: والـذي نفسي بيده، لو ظننت أنّ السباع تأكلني بالمدينـة لأنقذت هـذا البعث، ولا بدّ أن يؤوب منه، كيف ورسول الله، صلى الله عليه وسلم، ينزل عليه الوحي من السماء يقول: أنقذوا جيش أُسامة!! ولكنّ

---

(١) أي يقر قراره ويستقيم.

خصلةً أُكلّم بها أُسامة، أُكلّمه في عمر يُقيم عندنا فإنّا لا غنى بنا عنه؛ والله ما أدري يفعل أُسامـة أم لا، والله إن أبى لا أُكرهـه. فعرف القوم أن أبا بكرٍ قد عزم على إنفاذ بعث أُسامة[1].

٢ ـ عن ابن عمر رض الله عنهما قال: لما قُبض النبي، صلى الله عليه وسلم، اشرأب النفـاق بالمـدينة، وارتـدّ العـرب وارتـدّت العجم[2] وأبرقت وتواعدوا نهاوند، وقالوا: قد مات هذا الرجل الـذي كانت العـرب تُنصر به. فجمـع أبـو بكـرٍ رضي الله عنـه المهـاجرين والأنصـار وقال: إنّ هـذه العـرب قـد منعـوا شـاتهم وبعيرهم ورجعوا عن دينهم، وإنّ هذه العجم قد تواعدوا نهاوند ليجمعوا لقتالكم، وزعموا أن هذا الـرجل الذي كنتم تُنصـرون به قد مات، فأشيـروا عليّ فـما أنا إلاّ رجـل منكم، وإنّي أثقلكم حملاً لهذه البلية. فأطـرقوا طـويلاً، ثم تكلّم عمـر بن الخطاب، رضي الله عنـه، فقال: أرى ـ والله ـ يـا خليفة رسـول الله أن تقبـل من العرب الصلاة وتدع لهم الزكاة، فإنّهم حديثو عهدٍ بجاهلية لم يُعـدّهم الإسلام، فـإما أن يـردّهم الله عنه إلى خـيرٍ، وإما أن يعزّ الله الإسلام فتقوى على قتالهم، فما لبقية المهاجرين والأنصار يدان للعرب والعجم قـاطبةً. فـالتفت إلى عثمان رضي الله عنـه

---

(١) حياة الصحابة ١/ ٤٢٣.

(٢) لم يكن العجم قد أسلموا بعد وإنما غيّروا خطتهم وقرروا قتال المسلمـين، إذ كانوا من قبل لا يرون الدخول في مشكلات الجزيرة.

فقال مثل ذلك، وقال علّي رضي الله عنه مثل ذلك، وتابعهم المهاجرون. ثم التفت إلى الأنصار فتابعوهم. فلما رأى ذلك صعد المنبر، فحمد الله وأثنى عليه ثم قال: أمّا بعد: فإنّ الله بعث محمداً صلى الله عليه وسلم والحقّ قُلٌّ شريد، والإسلام غريب طريد، قد رثّ حبله، وقلّ أهله، فجمعهم الله بمحمدٍ صلى الله عليه وسلم، وجعلهم الأُمّة الباقية الوسطى، والله لا أبرح أقوم بأمر الله وأُجاهد في سبيل الله حتى يُنجز الله لنا وعده ويوفي لنا عهده، فيُقتل من قُتل منا شهيداً في الجنّة، ويبقى من بقي منا خليفة الله في أرضه ووارث عباده. قضى الله الحقّ؛ فإنّ الله تعالى قال ـ وليس لقوله خُلف ـ: ﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنّهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم﴾ والله لو منعوني عقالاً كانوا يُعطونه رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثم أقبل معهم الشجر والمَدَر والجنّ والإنس لجاهدتهم حتى تلحق روحي بالله!! إن الله لم يُفرّق بين الصلاة والزكاة ثم جمعهما. فكبّر عمر وقال: والله قد علمت ـ والله حين عزم الله لأبي بكر على قتالهم أنه الحقّ[1]. ولم يلبث أن شُرح صدر الصحابة لقول الصديق ووافقوه على رأيه وعزمه.

٣ ـ عن ابن عمر رضي الله عنهما قال: دخلت على حفصة ونوساتها (ضفائرها) تنطف ماءً فقالت: علمت أن أباك غير

---

(١) حياة الصحابة ١/ ٤٣٢.

مستخلف؟ قلت: ما كان ليفعل، قالت: إنه فاعل.

فحلفت أن أُكلمه في ذلك، فغدوت عليه ولم أُكلمه فكنت كأني أحمل بيميني جبلاً حتى رجعت فدخلت عليه، فسألني عن حال الناس وأنا أُخبره، ثم قلت له: إني سمعت الناس يقولون مقالةً فآليت أن أقولها لك، زعموا أنك غير مُستخلفٍ. أرأيت لو أنّك بعثت إلى قيّم أرضك ألم تكن تحبّ أن يستخلف مكانه حتى يرجع إلى الأرض؟ قال: بلى. قلت: أرأيت لو بعثت إلى راعي غنمك، ألم تكن تحبّ أن يستخلف رجلاً حتى يرجع؟ فماذا تقول لله عزّ وجلّ إذا لقيته ولم تستخلف على عباده؟ فأصابه كآبة ثم نكّس رأسه طويلاً ثم رفع رأسه وقال: إن الله تعالى حافظ الدين، وأي ذلك أفعل فقد سُنّ لي، إن لم أستخلف فإن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يستخلف، وإن استخلفت فقد استخلف أبو بكرٍ.

فعلمت أنه لا يعدل أحداً برسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه غير مستخلفٍ[1].

ولم يكن من موضوعٍ إلا ويُقاس بمقياسٍ واحدٍ هو الكتاب والسنة، ولا أقصد موضوعات القضاء فإن ذلك أمر بدهي، فلم يكن القاضي ليتجاوز ذلك حتى هذا اليوم، ولكن أعني موضوعات الدولة وأمورها التي تتعلق بالخلافة والإمرة وصلتها

(١) أخرجه البخاري ومسلم وأبو داود والترمذي والنسائي.

بالناس والدول حتى الخلافات التي حدثت بين الصحابة رضوان الله عليهم كانت مبنيةً على هذا ولكن اختلفت اجتهاداتهم فحدث الخلاف ووقعت المشكلات حتى أدّى إلى القتال، وكل منهم مأجور ـ إن شاء الله ـ سواء أخطأ أم أصاب.

لقد امتدّت الدولة الإسلامية نتيجة الفتوحات التي تمّت أيّام أبي بكرٍ وعمر وعثمان رضوان الله عليهم، فدخلت عناصر جديدة كثيرة في الإسلام، وجاءت الغنائم محمولةً متتابعةً إلى جزيرة العرب والبلدان التي خرج منها المجاهدون، فتغيّر شيء في نفوس الناس فوقعت الفتنة إلّا أنّ رسوخ الإيمان قد أبقى المجتمع مُتماسكاً رغم كل ما حدث من خلافٍ، والخلاف بُني على اجتهادٍ صحيحٍ، فعلي بن أبي طالب الذي آلت إليه الخلافة يرى أنه ـ وحده ـ صاحب الحقّ في إقامة حدود الله، وتنفيذ أمر الله، وعلى الولاة السمع والطاعة، وامتثال أوامر التعيين أو العزل، ولا يحقّ للوالي أن يترصّد أعمال الخليفة لأن ذلك يُخرجه عن مهمته في تسيير أمور الولاية وحماية الثغر إضافةً إلى ما يحدث من بلبلةٍ وفوضى تُؤدّي إلى فتنةٍ إن استمرت عملية الرصد، وأن الخليفة هو الذي يُنفّذ أمر الله في الوقت المناسب حتى لا يتعرّض المجتمع لهزّةٍ جديدةٍ، وأن والي الشام مُعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما تأخّر عن البيعة وتحدّث في قضية عثمان رضي الله عنه، والخلافة لم تستقر، والخليفة لم يتمكّن من الأمر بعد، فأوقع الأمة

في مشكلةٍ، وأخّر استقرار الوضع، فوقعت الفوضى، فما على الوالي إلاّ الإسراع في البيعة لإنقاذ الأُمّة مما فيه.

أمّا مُعاوية بن أبي سفيان رضي الله عنهما فكان يعيش في الشام بعيداً عن جوّ الأحداث يرى أن الخليفة عثمان بن عفّان رضي الله عنه قُتل مظلوماً، وأنّ قتلته لا يزالون يمرحون في المدينة بل لهم دور فيها، لم يُقَم على أحدٍ منهم الحدّ، وأن عدداً من الصحابة لم يُبايع منهم فئة من كبار المهاجرين وأهل الشورى مثل: طلحة، والزبير، وسعد بن أبي وقاص، وأُسامة بن زيد وفئة من كبار الأنصار مثل: زيد بن ثابت، ومحمد بن مسلمة، وحسان بن ثابت وغيرهم، بل إنّ بعضهم قد جاء إليه ناقماً مُستغيثاً حيث جاء النعمان بن بشير رضي الله عنهما من المدينة إلى الشام يحمل قميص عثمان رضي الله عنه مُلطّخاً بالدماء وفيه أصبع زوجه نائلة بنت الفرافصة التي قُطعت عندما أرادت الدفاع عن زوجها الخليفة الراشد بمدّ يدها، وهذا ما زاد مُعاوية رضي الله عنه تصلّباً في موقفه بل عندما سار كل من الخليفة وواليه إلى الآخر بقي قتلة الخليفة عثمان رضي الله عنه في جيش الخليفة رضي الله عنه وهذا ما أبعد جوّ التفاهم، وفي كلا الجيشين عدد من صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم.
فاجتهاد مُعاوية رضي الله عنه صحيح ووجيه، وإذا كنا اليوم نحكم عليه، ونُؤكّد أن الحقّ بجانب عليّ رضي الله عنه الخليفة الشرعي فإنّ هذا بعد أكثر من ثلاثة عشر قرناً والأمور أمامنا

مبسوطة أما الذي يعيش داخل جوّ المحنة فيرى غير الذي يراه من بعيد بعد مئات السنين والوقائع معروضة له من كل جهة. والذي يعيش في المدينة المنورة ميدان الأحداث غير الذي يعيش في الشام بعيداً تأتيه الأخبار بعد انقضائها بعشرين يوماً، ووصول الأخبار يومذاك غير ما هي عليه الآن، ومع الأسف، نُحلّل الأوضاع بمفهوم اليوم على أساس منجزات العصر، وما تمّ في هذا الوقت.

أيام الأمويين:

استمرت معالجة كلّ موضوعٍ على أساس الإسلام في العهد الأموي، ولما قامت الفتوحات، وجاءت الغنائم وفيها العدد الكبير من السرايا تغيّرت النفوس بصورةٍ أوسع مما تغيّرت في أيام الراشدين، هذا التغيّر قد هزّ المجتمع على نطاقٍ أوسع مما أصابه من هزّةٍ أيام الراشدين، فضعف شأن الدولة، غير أن الإسلام لا يزال قوياً في النفوس وهذا ما أبقى المجتمع على شيءٍ من التماسك، إذ كان عهد التابعين. وإذا كانت السلطة قد ضعفت غير أن المجتمع بقي سليماً، وسقطت الدولة وزالت الفئة الحاكمة دون أن يُغيّر ذلك شيئاً من حالة المجتمع.

أيام العباسيين:

حرص العباسيون في أول أمرهم على تقويم كل قضيةٍ على

أساس الإسلام، غير أن تجاوزاتٍ كانت تحدث عند المحافظة على الحكم، وخاصةً أن عهدهم به جديد، وقد عملوا الكثير من أجله، ويخشون ضياعه. وعندما كثُر المُتنفّذون ضعفت السلطة وكثرت التجاوزات إذ يُحافظ كلّ على كيانه ومركزه.

وانقلبت مناطق نفوذ المتسلّطين إلى إماراتٍ وإلى دولٍ انفصاليةٍ، وليست هذه الدول والإمارات على درجةٍ واحدةٍ من التجاوزات وإنما تختلف باختلاف رجالها. ومع زيادة أصحاب النفوذ الذين يعتمدون على عصبياتٍ في أغلب الأحيان أو قبائل وعشائر كبيرة زادت التجاوزات وضعف نتيجتها سلطان الدولة، وإذا كانت هذه التجاوزات مقتصرةً على فئةٍ محدودةٍ إلاّ أنّ خطرها يتجاوز تلك الفئة وينعكس على المجتمع نقداً وتقليداً ومحاولةً في التحلّل من القيود لولا القضاء الذي يقف في وجه كلّ محاولةٍ إذ لم يكن ليتساهل في تطبيق الشرع على أيّة قضيةٍ مهما كان شأن مرتكبيها. ومع عدم تقويم الموضوعات التي تُعرّض على السلطة على أساس الإسلام لم تكن لتُعالج قضية على أسسٍ سليمةٍ الأمر الذي جعل الأمر يتدهور، ويسير بشكلٍ دائمٍ نحو السوء، وربما لم تعالج سوى قضية الزنج والقرامطة بشكلٍ صحيحٍ على أساسٍ إسلاميٍ. إذ عرف الموفق أخو الخليفة المعتمد الأسباب التي دعت إليها أو ساعدت على نجاحها، فحاول التخلّص من تلك الأسباب ودعا إلى تطبيق الإسلام الذي يقضي على دواعيها، فوجد الدواء لها فانفرط عقد الزنج

وتخلّص العباسيون من حركتهم. ومن ثم قام القرامطة بحركتهم غير أن المعتضد بن الموفق تسلّم الخلافة فقاتلهم وقضى على فرقتهم في العراق، ويُعدّ المعتضد درّة بني العباس في أيام ضعفهم. وبعد المعتضد رجع الأمر إلى ما كان عليه.

ونتيجة الضعف الذي ظهر على الدول أو الإمارات الإسلامية فقد قام الصليبيون بغزوهم المعروف للمشرق، وحصلوا على بعض النصر الموقت غير أن صلاح الدين الأيوبي قد استنهض ما بقي من همم لدى المسلمين وقادهم لقتال الصليبيين فأحرز النصر، ولكن الضعف عاد للأيوبيين بعد فتنازعوا أمرهم فيما بينهم وعادوا بلاءً على الأُمّة. وجاءت جحافل المغول من المشرق، واكتسحت الإمارات الإسلامية الواحدة بعد الأخرى، وأخافت الناس بما ارتكبته من مجاذر وقطائع. وأصبح الأمن مطلباً والاستقرار أملاً، واستنهض سيف الدين قطز، والظاهر بيبرس من المماليك ما بقي من همم المسلمين فأوقفوا المغول، وانتصروا عليهم، ثم لم يلبث المغول أن ذابوا في المجتمع الإسلامي، وغدوا جزءاً منه.

أيام المماليك:

اتسم العهد المملوكي بالتجاوزات، وإن انحصرت هذه التجاوزات بالذروة، ولكن ما أكثر الذرا التي كانت تنشأ من

المنافسة الدائمة بين المماليك حيث كان لكل كبيرٍ منهم عـدد من المماليك عبيداً له يُنافس بهم، ويُقاتل بهم، فيُخشى جانبه، وقد تصل به القوة إلى تسلّم السلطنة، ومع تجاوزات أمـراء المماليـك فإن العلماء قد كثر عددهم أيضاً وكان أكثـرهم يحكم بالحقّ وبـه يعدل، ولا يُبالي بكلمة الحقّ يقولها وهو عـلى استعدادٍ للتضحيـة بنفسه. فأمور السلطنة لم تكن لتُعالج أمورها على أسسٍ إسلاميةٍ دائماً.

وما عداها فتُعالج بل إن الأمراء المُخالفين كانوا يُقّدرون أهل العلم ويُشجّعـونهم على تنفيـذ أمـر الله ويحضّـونهم عـلى ذلـك، ويمتثلون لما يُنفّذ عليهم، وإن كـانت الجرأة لم تصـل إلا إلى كبار أهل العلم في الحكم على رأس السلطنـة دائماً أو من بعض علماء فقط عرفوا في تلك الحقبة من الزمن.

أيام العثمانيين:

جـاء العثمانيـون تحت تأثـير العـاطفـة الإسـلاميـة، وكـانـوا حريصين على تطبيق الشريعة، ومعالجة قضاياهم إسلامياً غير أن الجهـل أو عـدم المعـرفـة كـانت الصفـة الغـالبـة، واستمـرت التجـاوزات في القمة وخـاصةً فيـما يتعلق بالحكم وقتـل الإخـوة لعدم المنافسة على السلطان، وما عدا ذلك فكان سليماً نسبياً.

ومنذ أن بدأت التجاوزات للأسس الإسلامية في الدولة الإسلامية أيام الدولة العباسية في عهدها الثاني أصبح المسلمون وأعداؤهم على حدٍ سواء من حيث القوة المادية، فمن قبل كان المسلمون يتغلّبون على أعدائهم بالإيمان، وكان المسلمون دائماً أقل عدداً وعتاداً غير أن النصر كان حليف المسلمين للروح المعنوية التي يتحلّون بها نتيجة إيمانهم، فلما ضعف الإيمان وبدأت التجاوزات غدا الجانبان سواء، لكن أعداء الإسلام كانوا لا يزالون على درجة من الضعف لا تُمكّنهم من إحراز النصر باستمرار وإن كان يحدث في بعض المعارك نتيجة التفوّق الكبير. فلما جاء العثمانيون كان المسلمون قد وصلوا إلى مرحلةٍ من الضعف، ومضى على التجاوزات الشرعية مدةً بل زادت، وكان أعداء الإسلام وخاصةً في أوربا قد بدؤوا بالنهوض، فلمّا اشتدّ عُودهم أخذوا في منازلة المسلمين المُتمثّلين في العثمانيين، ومن هنا كان اهتمام العثمانيين بالقوة العسكرية فتغلّبوا على أعدائهم في أول عهدهم حيث كان الصليبيون في بداية نهضتهم، لكن استمرّ الصليبيون في انطلاقتهم، وبدأ العثمانيون بالتراجع فتعادل الطرفان ولكن مع الزمن واستمرار كلٍّ في متابعة خطّه ومسلكه، خطّ الصليبيين في ارتفاعٍ وخطّ العثمانيين في تنازلٍ وهذا ما جعل كفّة أوروبا ترجح، وأصبح العثمانيون في موقف الدفاع والتراجع حتى ضعفوا تماماً ثم زالت دولتهم، ووصلت الصليبية إلى أوج قوتها وبدأت تتحكّم في المسلمين

وديارهم وقد ضاعت خلافتهم وانفرط عقد وحدتهم، وغدوا في مستوىً متدنٍ تماماً من الضعف أو في الحضيض.

ونتيجة الضعف الذي أصاب المسلمين بدأت مرحلة التقليد للأعداء، وسار معها خطّ التحلّل والتفلّت من الأحكام الشرعية، إذ تسلّط الأعداء على المسلمين فنشروا الأفكار المعادية والفساد، وبطبيعة الحال فالنفوس تميل إلى تقليد الأقوى، وإلى التحلّل من كلّ قيدٍ حيث حُبّبت إليها الشهوات، إضافةً إلى أن الأعداء قد قرّبوا من ساير خطّهم وأبعدوا من خالفه فاتجه الطامحون والطامعون وأصحاب الأهواء وأهل المصالح، ونأى عنهم أهل الصلاح وضعُف شأنهم واستبدّ أهل الشرّ بأهل الخير. ويجب ألاّ ننسى ضعف النفس البشرية أمام المغريات، ولا نغفل الهزيمة النفسية التي لحقت بالكثيرين أمام التفوّق والتطوّر الصليبي الهائل، وتخلُّف المسلمين الواضح.



الفصل الثالث

التقويم في الأيام المعاصرة

لم تعد التجاوزات الشرعية تقتصر في أيامنا المعاصرة على فئةٍ معينةٍ بل تعدّت ذلك إلى القضاء وإلى المجتمع اللذين لم تصل إليهما تلك التجاوزات خلال التاريخ الإسلامي كلّه. لقد أوجد الأعداء عندما تسلّطوا على ديار المسلمين ما يسمى بالمحاكم الخاصة التي يمثُل أمامها رعاياهم من أبناء جنسهم ومن أبناء عقيدتهم النصارى سواء أكانوا من الذين جاءوا معهم من ديارهم أم من الذين عاشوا معنا في ديارنا على مدى التاريخ الإسلامي، وأقاموا بأمن واستقرار رغم ما تضمر نفوسهم من حقدٍ وما يتصرّفون به أحياناً عندما يقوى أمر أبناء عقيدتهم النصارى. ثم وجدت المحاكم المختلطة التي تنظر في قضايا أصحاب عقيدتين مختلفتين وفي الأمور غير الشرعية حيث جُزئت الدعاوى إلى شرعيةٍ وغير شرعيةٍ وعرفت بالمدينة، والتقسيم أصلاً غير صحيح، ونُظّمت المحاكم المختلطة بشكلٍ جيدٍ، وهُيّئت بصورةٍ مُنظّمةٍ فكانت تنظر في القضايا المُحالة إليها بسرعةٍ، وتُصدر حكمها بسرعةٍ، على حين كانت المحاكم الشرعية غير مُنظّمة، ويزيد التعقيد فيها كثرة المشكلات المحالة

إليها الأمر الذي يُؤخّر إصدار الحكم، فيتأثر أصحاب القضـايا، وهذا ما يجعـل الناس يُفكّـرون في إحالـة قضاياهم إلى المحاكم المختلطة نتيجـةً للسرعـة وعدم التعقيـد، ومـع الـزمن أصبحت المحـاكم المختلطة أو التي عرفت فيـما بعد بـالمحاكم المـدنيـة هي السائدة، بل إن عدداً من البلدان الإسـلامية قـد ألغت المحاكم الشـرعية واقتصـرت عـلى المحـاكم المـدنيـة، ويمكن أن ينـظر في القضايا كلها قاضٍ واحدٍ أيّاً كانت عقيدته وقد يكون نصرانياً أو غير ذلك من الملل والنحل الأخرى.

ونتيجـة هذا كلّه وتحت خضـوع المجتمع للحيـاة الماديـة التي غدت سائـدةً أصبح النـاس لا يُفكّرون إلّا بـالحصول عـلى المال بغضّ النـظر عن شـرعيتـه، ولا يبحثـون في قضـايـاهم إلّا من الجـانب الذي يـدرّ عليهم الربـح من غير بحثٍ في جـواز ذلـك سواء أكان من حيث الوسيلة أم من حيث النتيجة.

وبسبب وجود مفاهيم جديدة ودخول أفكارٍ غريبةٍ فقد حدث صـراع بين الأفكـار الإسلاميـة والأفكـار الـدخيلة ونتيجـة هـذا الصراع فقد نشأت صحوة إسلامية بسبب قيـام رجال يُنـافحون عن الأفكار الإسلامية، ويذودون عن التُّهم، ويُدافعون ضـدّ ما يُشاع، ويقفون في وجـه الأفكار الـدخيلة الغازيـة، وتأثّـر بهؤلاء الـرجال من المسلمـين أُناس كثيـرون فنشأت حـركات إسـلامية مُهمّتها بثّ الفكر، والدعوة إلى تطبيق الإسلام، وتـوسّعت هذه

الحركات وتعـددت حتى لا يكاد يخلو منهـا مصر، إن لم تتعدد في المصر الواحد فتكون السلبيات في المنافسة إلى جانب الإيجابيات، ونتيجـة هذه الصحـوة فقـد وحّـد الأعـداء صفـوفهم ووقف إلى جانبهم أنصارهم لخنق هذه الصحوة والقضاء عليها.

الصحوة:

لقد تكاتفت جهـود الصليبية واليهـودية وأصحـاب الديـانات الأخـرى من هندوكيـةٍ وبوذيـةٍ والوثنيـات الثانيـة وتعاونت معهم الأقليات الدينيـة والمستغربـون في الداخـل إضافـةً إلى الإلحاد في الداخل وعلى المستوى الدولي خوفاً وحقداً ومعاداةً دينيةً وسياسيةً على كل مستوىً وعلى كل صعيد.

وخوفاً من القوة الإسلاميـة الضخمة إذا تجمّعت وذات الـروح المعنوية العالية إذا رجعت إلى عقيدتها، وذات الإمكانات الهـائلة إذا رفعت رايـة الجهاد، وقـد جرّب كـلّ الأعداء مـع المسلمـين معارك وكانت تجـارب قاسيـة. وخوفـاً من التزايـد المستمرّ لـدى المسلمين الأمر الذي يجعل أصحـاب الديـانات الأخـرى يخشون الطغيان عليهم فيعملون على الوقـوف في وجه المسلمـين، فهناك بلدان يكون فيها المسلمون أقليةً لا يلبثون بعد مـدةٍ أن يُصبحوا أكثـريةً نتيجـة الزيـادة الطبيعيـة الناشئـة عن زيـادة الـولادات، والزيادة الناشئة عن دخـولِ أفواجٍ في دين الله لأن الإسـلام دين

الفطرة ينسجم مع رغبات النفس وتطلّعاتها الطبيعية روحاً ومعنى ومادةً.

يقف أعداء الإسلام في وجه أبنائه بالعمل على إبادتهم بافتعال حادثةٍ، أو إثارة فتنةٍ، أو إدعاءٍ كاذبٍ واختلاق الشائعات. ويقفون في وجههم بإرسال الإرساليات التنصيرية لفتن المسلمين عن دينهم بالإفساد والإغراء، والدعوة إلى النصرانية، وتمدّ الصليبية العالمية أو إتحاد الكنائس العالمي هذه الإرساليات التنصيرية بكل دعائم القوة لفتح المدارس، وتأسيس المشافي، وتقديم المناصب، وإعطاء الأموال لمن يعتنق النصرانية أو يُوافقها على حين يبقى المسلمون في جهلٍ، ومرضٍ، وبؤسٍ، وفقرٍ، وبقية المسلمين الذين يعيشون في حالةٍ أحسن في غيّهم غافلون. ويقف الإلحاد بجانب التنصير لأن الإسلام وحده الذي يمكن أن يقف في وجه الإلحاد لما فيه من حقائق ويُقدّم للنفس البشرية ما تبغيه وما تتطلع إليه، وتعجز النصرانية عن الوقوف في وجه الإسلام لأنها عاجزة عن تقديم أي شيءٍ روحي للإنسان ويتنافر ما فيها مع طبيعة النفس البشرية، كما تعجز عن الوقوف في وجه الإلحاد، لذا فالإلحاد والنصرانية يتعاونان للوقوف في وجه الإسلام.

وحقداً أورثه التاريخ للنصرانية منذ الحروب الأولى التي خاضتها مع الإسلام فبقي أبناؤها يحملون هذا الحقد ولم يزل أبداً من نفوسهم، وكذلك الديانة الهندوكية تحمل حقداً على

دخـول الإسـلام إلى الهنـد ومثلهـا البـوذيـة. وروسيـا والصـين الملحدتين اليوم تذكـران دخول الإسـلام إليهما أو إلى أطـرافهما، وإن كانت يومذاك على الـوثنية أو النصـرانية أو البـوذية. وهـذه القـوى جميعاً تحـرّض الوثنيـات لتقف مثلهـا في وجـه الإسـلام، وتمدّها بالإمكانات كافة لتستمر على خطّ المعاداة.

والمعاداة الداخلية الدينية والسياسية من قبل الأقليات الدينيـة والمستغـربـين والملحـدين أمـر طبيعي فـإضـافـةً إلى التحـريض الخارجي والدعم الـدولي يقف كل فـريق في صفّ، فالمسلمـون لهم نظامهم الإسلامي الخاص الذي يشمل جوانب الحياة كلها، والأعداء لهم نُظمهم المُهترئة المُهلهلة والتي لا تقوم عليها حيـاة، ولا يستقيم منهـا نـظام، أفكـار من أشخـاص من غـير تفـاهم وقواعد مجتمعـة من هنا وهنـاك بلا انسجـام، وعادات بـالية لا يقبلها عقل، ويخجل منها صاحبها فبقيها مخفيةً، وعقائد بـاطنية يستحي أهلها من إعلانها، ولكن تجعل بينهم رابطةً فيحافظون عليها.

فـالأعـداء لـلإسـلام يُمثّلون أهــل الأرض جميعـاً بــاستثنـاء المُلتزمين. لذا ما من منطقةٍ يعيش فيها مسلمون إلاّ والنكبة تحلّ بهم إثر النكبة وكلّ نازلةٍ أشدّ وأصعب من سـابقتها، في الهنـد، في بورما، في تايلاند، في بلغاريا، في يوغوسلافيـا، في سوريـا، في ليبيـا، في المغـرب و. . . . وهنـاك مشكـلات دوليـة يُشكّـل المسلمـون طـرفـاً فيهـا، مشكلة فلسـطين، كشمـير، اريتـريـا والحبشة، افغانستان، المسلمون في الفيليبين، فطاني و. . . . .

العـداء للعقيدة والعـدوان للعقيـدة ومن ينتسب إليهـا سـواء أكان مُلتزمـاً بها أم لا ، ومجـرد أن ينتمي إليها المـرء فالحقـد عليه قـائم والعدوان نـازل به، ومـع ذلك يُشكّـل عدد من المسلمـين طـرفاً في العـداء للإسـلام دون أن يدري أن هـذا سينقلب عليه شخصيـاً لأنـه ينتمي إلى الإسـلام بغضّ النـظر عـمّا يحمـل بـين جوانحه من أفكارٍ وآراء وحتى عقائد وضعية ملحقة. فالحرب في جنـوب الفيليبين تنال المسلمين جميعـاً مُلتزمهم بـالإسـلام وغـير ملتزمهم، وكذا الحال في كلّ منطقةٍ بـل إنّ أهل فلسـطين عندما تُصيبهم النازلة لا يُفرّق بين الشيوعي منهم، والمسلم، والبعثي، و. . . . . وإن ما حلّ بهم في لبنان كان لأنهم من أصلٍ إسلامي فـأثار ذلـك حقد النصـارى عليهم، ولم يكن لأنهم يعـودون إلى أرضٍ اسمهـا فلسـطين واغتصبهـا اليهـود، مـع أنّ أكثـرهم لا يعرفون من الإسـلام سوى الانتـماء، ولو كـانوا من النصـارى لما حلّ بهم ما حلّ. ولو أن سكـان فلسطين من النصـارى لما تجـرّأ اليهـود على التـوجّـه نحـوهـا واغتصـابهـا، ولمـا وجـدت مشكلة فلسطين بالأصل. ويجب أن يعلم المسلمون جميعـاً على اختـلاف انتماءاتهم أن الحرب قائمة عليهم مجـرد انتسابهم لـلإسلام، وأن أخذهم بأفكـارٍ ثانيـةٍ أو اتجاههم غـرباً أو شـرقاً لن يُنجيهم من القتل، وأنّ الخير كل الخير لهم التمسك بعقيدتهم، وتضامنهم إذ يُحقّق لهم ذلك النصر في الدنيا والفوز بـالآخرة ـ إن شـاء الله ـ. وإن النكبات التي تنزل بالمسلمين في كلّ ساحةٍ تُؤكّد هـذا، وإن

دراستهـا بوعيٍ وبشكـل موضـوعي يوصـل إلى هـذا النتيجـة. ويمكن أخذ العبرة منها بعدئذٍ.

لنعـدّ إلى عملية التقـويم الإسـلامي بـالنسبـة إلى مشكـلات المسلمين التي قُلنا أنّها تحدث على كلّ أرضٍ، بعضها يطفو عـلى السطح بشكل واضـح فيُسبّب مشكلةً دوليةً، وبعضهـا يبقى ضمن حـدود منطقـةٍ أو إقليم، ولا يُريـد أعـداء الإسـلام إبـرازه عـلى السـطح ما دام يُحقّق أهـدافهم إذ يقتل المسلمـون بيـد مُتسلّطين يدّعون الإنتماء إلى الإسلام لذا يعملون على إبقاء المُشكلة ضمن حدود الدولة صاحبة المُشكلة ويزعمون أنها قضية محلية، ويُفتون بعـدم التـدخّـل بشؤون الـدول الأخـرى حسب قـرارات الأمم المتحدة، ويُخنق صوت المسلمين، ويُعتّم الإعلام عنهم، ويموتون بالصمت وفي الظلام دون أن يُذكرون بكلمـة ومن غير أن تُقـطر عليهم دمعة.

إن المسلمين الذين تحلّ بهم النكبات قد أثارهم الـظلم الذي يقع عليهم، وحرّكـهم الحقد عليهم والذي بدؤوا يشعرون بـه، وأخرجهم البؤس الذي يُعانونه، ولكنهم:

١ ــ لم يستعـدوا الإستعـداد الـلازم المـطلوب منهم فـأعـداؤهم يملكون جيوشاً مُنظّمةً مُدرّبةً مُسلّحةً كامل السلاح بأنواع قطعاته وأحدثها، إضافة إلى هيبـة الحكم، ووسائـل الإعلام، والـدعم الخارجي، والتأييد الدولي. والدراسات العلمية والنفسية وتطبيق الوسائل الحديثة كلها في محاربة الإسلام وشنّ الهجوم على أبنائه.

٢ ـ لم يُعوّضوا عن الاستعداد بالروح المعنوية الكامنة في عقيدتهم، والتي يُحاربون من أجلها، والتي يُقاتلون تحت مظلّتها، فنجد كثيراً منهم لا يلتزم بأحكام الشرع، ولا يتقيّد بمبادىء الإسلام، ولا يُقاتل لتكون كلمة الله هي العليا، وإنما من أجل الأرض أو للتخلّص من البؤس الذي يُعانونه، أو الفقر الذي يعيشونه، أو الظلم الذي يقع عليهم، أو لخلع طاغية ووضع طاغيةٍ آخر مكانه أو. . . . . .

٣ ـ لم يُوحّدوا صفّهم ويجمعوا كلمتهم إذ تجد قلوبهم شتّى منهم من يتجه غرباً ومنهم من يلتفت شرقاً، فيهم الظالم، وفيهم المرابي، وفيهم العاصي، وفيهم من يُظهر حربه على الإسلام، ويُعلن كفره الصريح، ومنهم الصالح، ومنهم المُخلص الطيّب، ومنهم من يُزجّ في الميدان على أنه أحد أبناء المنطقة، ولكن يجمعهم الانتساب إلى الإسلام ويُحاربون من أجل ذلك، ومع هذا فلا يلتزمون به، ولا يفيدهم هذا التشتّت أو ذلك الحيدان عن مبائده وتعاليمه.

٤ ـ إن عدداً من هؤلاء المسلمين يُمالىء الطغاة المُتسلّطين لمصلحةٍ يبغيها أو لاعتناق مبادىء الأعداء وأفكارهم، أو يكون ممن احتواه الأعداء ولفّه تيارهم.

كيف ينتصر هؤلاء المسلمون؟ لنذكر الكلام المأثور «نحن أُمّة أعزّنا الله بالإسلام، ومن ابتغى العزّة بغيره أذلّه الله» وقول

عبد الله بن رواحة في معركة مؤتة وقد كان المسلمون في ثلاثة آلاف فقط وأعداؤهم في مائتي ألف «والله ما كُنّا نُقاتل الناس بكثرة عددٍ ولا بكثرة سلاح، ولا بكثرة خيول إلّا بهذا الدين الذي أكرمنا الله به، انطلقوا والله لقد رأيتنا يوم بدرٍ ما معنا إلّا فرسان ويوم أحد فرس واحد، فإنما هي إحدى الحسنيين إما ظهور عليهم فذلك ما وعدنا الله ووعد نبينا، وليس لوعده خلف وإما الشهادة فنلحق بالإخوان في الجنان».

ليس معنى هذا أن مساعدتهم غير ضرورية، بل على العكس إن مساعدتهم واجبة وأساسية، ومن المهم الحضّ عليها لأن فيها تقوية الرابطة الإسلامية، وجذبهم نحو إخوانهم المسلمين الآخرين، وتنمية فكرة الوحدة الإسلامية، وإبداء الأخوة، وإظهار الشعور المشترك، وربما كان هذا سبيلاً إلى التزامهم بالإسلام والعمل له والدعوة إليه وهي نقطة مُهمّة، إضافةً إلى إمكانية وقوفهم إلى جانب القضايا الإسلامية الأخرى، وبهذا يكون العمل إلى فكرة الوحدة الإسلامية.

أمّا إخوانهم في الأمصار الإسلامية فليسوا بوضع أحسن كثيراً مما تُعاني الأقليات الإسلامية إذ أن المتسلّطين عليهم يضغطون عليهم باستمرار ويُنزلون بهم الضربة إثر الأخرى، وإن عدداً من الذين يرفعون الشعار الإسلامي لا يُحسنون التصرّف أو لا يعملون بإخلاص، أو يُجيدون السعي وراء المصالح والأغراض

الأمر الذي يُوقعهم في الممالأة أو التزلّف للمُتسلّطين، وربّما وصل بعضهم إلى مرحلة الإحتواء والسير في ركب الأعداء، وهذا ما يعمل له الخصوم إذ يُصبح بعض الظاهرين من المسلمين موضع النقد والتجريح، وعليهم إشارات استفهام الأمر الذي يُنفّر الناس منهم، ويتّهمونهم بالإلتواء والمداهنة، أو الإحتواء والمراوغة فيبتعد عنهم الشباب أولاً، ثم قد يصل الأمر إلى اتهام الإسلام نتيجة الجهل، فهؤلاء لا يُمثّلون الإسلام بل يُمثّلون أنفسهم، بل لا يُمثّلون المسلمين وإنّما يُمثّلون أشخاصهم فقط. ومع الأسف فإن أكثر المسلمين لا يُمثّلون الإسلام العظيم وهو الدين الذي اختاره الله لعباده كي تكون لهم السعادة في الدنيا وفي الآخرة، وأنزله بما ينسجم والفطرة البشرية التي فطر خلقه عليها.

كل هذا يدعو المسلمين المُخلصين إلى اللقاء وتجميع جهدهم وتوحيد صفوفهم فتنشأ الحركات الإسلامية غير أنها تتعرّض للضغط نفسه الذي يتعرّض له الأفراد بل بصورةٍ أعنف لأن الخوف يأتي منها، كما تتعرّض للهجوم، والشائعات، والحرب النفسية، والحرب الإعلامية، ومحاولة الجرّ إلى معركةٍ غير مُتكافئةٍ للقضاء عليها، وإخافة المُتسلّطين الآخرين في بلدان أخرى لها فيها فروع أو أمثالها من الحركات لتعاون المُتسلّطين للوقوف في وجه الحركات الإسلامية خوفاً على نفوذهم، وإرضاءً لساداتهم، وتنفيذاً للمُهمّة الملقاة على عاتقهم، وتحقيقاً لأهوائهم ودوافعهم

الـذاتية. ولكن أصعب مـا في الأمر هنـا إمكـانيـة إحتـواء بعض رؤوس الحـركات الإسـلامية إذ يسعى وراء هـذا كلّ الأعـداء، ويضعون كل الإمكانات في سبيل ذلك، ويرسمون المخططات، وينصبـون الشرك كي يصيـدون بعض البـارزين في الحـركـات، ولكن قلّما يحصلون عـلى فـريسةٍ، فـإذا مـا وقعت فـريســة في شبـاكهم، اتجهت الحـركـة نحـو الإنحــراف حتى تكتشف أمـر صاحبها أو تعرفه، أو تُصـاب بالفـرقة ويقـع الخلاف بـين أفراد الحـركة. ولكن الأمـر لن يطول إذ لا يلبث أن يتضـح كل شيءٍ عـلى حقيقته، ويُلفظ الخبث، ويعـود الأمر إلى سـابق عهده إمـا بالإصلاح أو نشـوء حركـة جديـدة ترث الأولى، فـالإسلام بـاقٍ بـإذن الله، والإيمان يعمـر النفوس، والصـلاح قائم وإنمـا تحتاج القلوب إلى تذكير، وإلى من يـأخذ بـأيدي أصحـابها إلى طـريق الخير.

الحركات:

تنشـأ بين صفـوف المسلمين حـركات في الأمصـار الإسلاميـة وبين أفراد الأقليات المسلمة نتيجة ما يلحق بالمسلمين هنا وهناك من ضغطٍ وأذى ومحـاولات إبادة بسبب عقيـدتهم التي يعتنقـونها فيضطرون لذلك إلى تنظيم صفوفهم، وطرح أفكارهم، والدفاع عنها، وحماية ذاتهم، فتكون لهم هذه الحركات، التي تعمل عـلى تـربية أفـرادها وتقـويتهم للوقوف في وجـه أعدائهم، وهنـا نجد

أنفسنا مضطرين إلى طرح بعض الموضوعات:

١ ـ هل يصحّ مواجهة الأعداء قبل تكامل الاستعداد والتربية؟.

بقي رسول الله، صلى الله عليه وسلم، ثلاث عشرة سنة في مكّة يدعو قومه، ويُربّي صحبه، ويُعدّ النفوس والأعداد لامكانية مواجهة الأعداء. ولم يُفكّر بالمواجهة قبل تكامل الإمكانات، لأنه لو تمّت لقُضي على الحركة من أصلها لأن المعركة تكون غير متكافئة فالأعداء يملكون الجيوش المُنظّمة والمُدرّبة والمُسلّحة ويملكون أجهزة المخابرات، ووسائل الإعلام، والأعوان، وللحكم هيبته التي تُقدّر بـ ٦٠ ـ ٧٠٪ من إمكانية المقاومة والقتال.

لهذا يحرص الأعداء إلى جرّ الحركات الإسلامية إلى المعركة قبل أن تتكامل قواها لتكون المعركة غير متكافئة، وعلى الحركات الإسلامية الواعية أن تحول دون ذلك، وعلى القادة أن يدركوا هذا، ويحرصوا على ضبط النفس وضبط أفرادهم لئلا يعطوا الفرصة لخصومهم للقضاء عليهم. وقد عملت قريش جهدها كله لجرّ المسلمين إلى معركةٍ خاسرةٍ غير أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حال دون ذلك، فقد استعملت قريش الحرب النفسية، والعذاب الجسمي، والحرب الاقتصادية والاستفزازات كافة ولكن المسلمين تحمّلوا هذا كله وصبروا على ما أُوذوا حتى

أتى نصر الله. ولم يقعوا في شرك قريشٍ وأحابيلها، وكان رسولهم الكريم، صلى الله عليه وسلم، يدعوهم إلى الصبر وتحمّل الأذى ويضرب لهم الأمثلة في صبر الذين خلوا من قبلهم من المؤمنين «كان الرجل فيمن قبلكم يُحفر له في الأرض فيُجعل فيه فيُجاء بالمنشار فيوضع على رأسه فيُشقّ باثنتين، وما يصدّه ذلك على دينه، ويُمشط بأمشاط الحديد ما دون لحمه من عظم أو عصب وما يصدّه ذلك عن دينه، والله ليُتمّنّ هذا الأمر حتى يسير الراكب من صنعاء إلى حضر موت لا يخاف إلاّ الله أو الذئب على غنمه ولكنكم تستعجلون»[1]. ويعدهم نصر الله ومغفرته «صبراً آل ياسر، موعدكم الجنّة»[2].

وقد تأخذ الحماسة الشباب فيندفعون، وتجرّ الحركة إلى المعركة وهذا ما يريده الأعداء، غير أن من واجب القادة ضبط الأفراد، وتذكيرهم بالإلتزام، وتعريفهم بعاقبة الأمر، وإلزامهم بالسنّة. أما أولئك الأشخاص الذين يُثنون على حماسة الشباب، ويشجعونهم على الإقدام في غير وقته، أو يصلون إلى مرحلةٍ ينسبون طيش الشباب لهم، وإذا ما حدث فهم فعلاً في مرحلة طيش ولا يصلحون للقيادة أبداً، وإما أن يكونوا قد باعوا نفسهم للشيطان، ولهم دور يُؤدّونه في ضرب الحركة، أو يعملون

(١) البخاري في المناقب، وأبو داود في الجهاد.
(٢) سيرة ابن هشام.

لمصلحتهم فيرغبون في القيادة ولم يصلوا إليها لعدم صلاحيتهم لها، فاستغلوا هذه الظروف، وتنطّحوا لها، وتكون النتيجة تدمير الحركة أيضاً، ولهم سوء العاقبة.

وإذا كانت التربية غير متكاملةٍ والاستعداد غير كافٍ بدأت الخلافات، وحدثت الانشقاقات، وقاتلت الأجنحة بعضها بعضاً. وللنظر إلى صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وقد تكاملت تربيتهم لم يُنافس بعضهم بعضاً أبداً، وكانوا على درجة من الأُخوة والمحبّة والتقدير لا نظير لها أبداً، وخاصة أولئك الذين تربّوا في العهد المكّي، وإذا كان الصحابة كلهم ثقة وعدول إلّا أن بعضهم يختلف عن بعض، وهم طبقات، أهل بدر، فمن أسلم قبل فتح مكة، ثم من أسلم بعد الفتح، وإذا تكلّم أحدنا في الاختلاف الذي حدث فيما بعد، فهو اختلاف في الإجتهاد لا اختلاف على المنافسة وحبّ القيادة، والقتال الذي وقع لهذا السبب لا لغيره فكل جانبٍ يريد تنفيذ أمر الله حسبما أدّى إليه اجتهاده، ونحن بعد هذه المدة نعرف أن الحقّ إنما هو الوقوف بجانب الخليفة الشرعي عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه.

إذن لا تصحّ المواجهة قبل تكامل الاستعداد والتربية. والاستعداد قدر الطاقة، والتربية كامل الالتزام والتطبيق، وبعدها يكون طلب النصر من الله بعد تأدية كل ما في الطاقة

البشرية، ويأتي النصر بناءً على تنفيذ أوامر الله والالتزام بأحكامه وتأدية ما على الحركة من واجبات. ولا وزن لرأي من يقول: نتوكل على الله وننطلق ما دمنا على حقّ. إذاهو الإلقاء بالإيدي إلى التهلكة ولم يفعل ذلك رسول الله، صلى الله عليه وسلم، الذي لو طلب من أصحابه الإقدام وهم بمكّة لما توانى أحدهم، ولكان أسرع إلى تنفيذ ما يُطلب منه أكثر من أي رجلٍ في هذه الأرض. وفي سرية العيص عندما التقى أسد الله حمزة بن عبد المطلب في ثلاثين راكباً من المهاجرين مع عكرمة بن أبي جهل في ثلاثمائة راكبٍ من أهل مكة واصطفوا للقتال حجز بينهم مجدي بن عمرو الجهني، وكان موادعاً للفريقين جميعاً، وانصرف بعض القوم عن بعض، ولم يكن بينهم قتال، شكر رسول الله، صلى الله عليه وسلم، لمجدي حسن صنيعه إذ لم يكن عدد المسلمين كافياً. وإنّ المورط للحركة عدوّ مبين أو فاشل يريد التهديم، وكلاهما يكون تدمير الحركة على يده.

٢ ــ هل يصحّ القيام بأعمال النسف والتدمير والتي يذهب ضحيتها الأبرياء؟.

إن قانون القتال في الشريعة الإسلامية يُحرّم قتل غير المحاربين من الأعداء، فلا يُقتل الآمنون من نساء وأطفال وعجزة، ولا الرهبان ولا المزارعون إن كانوا منصرفين إلى فلاحتهم ولم يشتركوا في القتال، فقد قال رسول الله، صلى الله عليه وسلم،

لأُسامة بن زيدٍ رضي الله عنهما حين بعثه: «يا أُسامة اغزُ باسم الله في سبيل الله، فقاتلوا من كفر بالله؛ اغزوا ولا تغدروا، ولا تقتلوا وليداً ولا امرأةً، ولا تمنّوا لقاء العدو، فإنكم لا تدرون لعلكم تُبتلون بهم، ولكن قولوا: اللهم اكفناهم، واكفف ببأسهم عنا! فإن لقوكم قد أجلبوا وصيحوا فعليكم بالسكينة والصمت، ولا تنازعوا ولا تفشلوا فتذهب ريحكم.

وقولوا: اللّهم، نحن عبادك، نواصينا ونواصيهم بيدك، وإنما تغلبهم أنت! واعلموا أن الجنة تحت البارقة»[1]. وقال أبو بكرٍ الصديق، رضي الله عنه، لأُسامة نفسه عندما وجهه بناءً على وصية رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «لا تخونوا، ولا تغدروا، ولا تغلوا، ولا تُمثّلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخاً كبيراً ولا امرأةً، ولا تعقروا نخلاً وتحرقوه، ولا تقطعوا شجرةً مُثمرةً، ولا تذبحوا شاةً ولا بقرةً ولا بعيراً إلاّ لمأكلة، وسوف تمرّون بأقوامٍ قد فرغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرغوا أنفسهم له، وسوف تقدمون على قومٍ قد فحصوا أوساط رؤوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاخفقوهم بالسيف خفقاً، اندفعوا باسم الله»[2]. إذن لا تصحْ التفجيرات التي يُقتل فيها الناس بصورةٍ جماعيةٍ دون تمييز بين مقاتلٍ وغيره وفيهم النساء والعجزة

---

(١) المغازي للواقدي ٣/ ١١٢٧.
(٢) الكامل في التاريخ لابن الأثير ٢/ ٢٢٧.

والأطفال، وغالباً ما يكون فيهم بعض المسلمين في الأمصار لأن المسلمين يُشكّلون أغلبية أهلها فلا بدّ من أن يكون بعض المسلمين بين القتلى.

إن الحروب الحديثة يقع فيها مثل هذا في أغلب الأحيان إذا تجاوزت الحرب المقاتلين إذ هناك قصف عشوائي، وقصف للمدن ويضطر الجيش أن يُعامل الأعداء بالمثل، والمعاملة بالمثل أمر مشروع للإرهاب وطلب الاستسلام. أما ما نحن بصدده فهو مختلف تماماً إذ قلنا حركة إسلامية تقوم داخل مصرٍ. والحركة تختلف عن الجيش، والقتال الداخلي يختلف عن الحرب الخارجية، والقتال بين المسلمين يختلف عنه عندما يكون ضدّ المشركين وهناك تميّز تام.

وهناك نقطة تلحق هذا الموضوع وهي أولئك الشباب الذين يقومون بتفجير أنفسهم بسيارةٍ أو غيرها لإيقاع الخسائر بين الأعداء فإذا كانت خاصةً بالمقاتلين من الخصوم، وتحدث أثراً فيهم يهزّ كيانهم فالأمر فيه نظر، أما إذا كانت تُصيب الجميع فشأنها شأن التفجير العام، ويكون الفاعل مُنتحراً، وتعود المسؤولية على الآمر، ويتحمّل الفاعل الجزاء لأنه أطاع في غير طاعة الله، وقتل نفسه. هذا الجانب الشرعي أما من ناحيةٍ ثانيةٍ فإن الأعداء كثيراً ما يستغلّون مثل هذه الحوادث ويُروّجون الشائعات ضد القائمين بهذه الأعمال، ويصفونهم بالقتلة

والمُخرّبين لاقتصاد البلاد، ويُعرضون المشوّهين من الحادثة على شاشة التلفزيون وفي وسائل الإعلام الأُخرى ويُنحون باللائمة على الفاعلين، ولا شكّ فإنّه أهل المصابين والقتلى وأقرباءهم ومعارفهم يتأثّرون بهذا، وأصحاب العواطف و. . . . . . . وبالتالي تفقد الحركة كل رصيدٍ لها بين أفراد الشعب، وتعود الخسارة عليها، إضافة إلى ما ذكرنا عن الجانب الشرعي.

٣ ـ إذا حدثت مواجهة بين حركةٍ إسلاميةٍ والقائمين من المُتسلّطين في مصرٍ من الأمصار، وهُزمت الأفراد، وخرج بعض الزعماء إلى خارج المصر. هل يصحّ لهم ذكر أسماء الشهداء، أو الذين وقعوا في قبضة المُتسلّطين في سبيل كسب التأييد أو جمع المال لصالح الحركة؟.

إن الذين استشهدوا لم ينته أمرهم كي تذكر أسماؤهم فإن وراءهم أسراً تتعرّض للأذى إن عُرف ما كان من أمر ذويهم، كما قد يُعرف إخوان لهم كانوا على صلةٍ بهم من معرفتهم. وإن الذين قبض عليهم سيُنكرون صلتهم بالحركة، كما لهم أسر، ولهم إخوة على صلةٍ بهم فإن نشر أسماء هؤلاء وأولئك أو إعلانه وإذاعته أو التصريح به في مجلةٍ أو غيرها إنما هو خيانة للحركة، أو خدمة للأعداء المتسلّطين وإن ادّعى الفاعلون أنهم من قيادة الحركة الإسلامية، إذ لا بدّ من أن يُنبههم بعض الأعضاء ولكنهم يُصرّون على ذلك بحجة الدعاية والكسب الإعلامي

وجمع المال. وإذا لم يُنبههم أحد فمعنى ذلك أن مستوى الحركة كله على درجة من الضعف بحيث لا تصلح للعمل وإنما يجب حلّها والتخلّي عنها.

إذن لا يصحّ ذكر الأسماء أبداً، وفعله خيانة.

٤ ــ هل يصحّ لقادة حركة إسلامية الاتصال في خارج البلاد مع متسلّط آخر في سبيل الحصول على الدعم، وفتح مجال التحرّك في بلده؟.

عن عائشة زوج النبيّ، صلى الله عليه وسلم، أنّها قالت: خرج رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قِبل بدرٍ فلمّا كان بحرّة الوبرة أدركه رجل قد كان يُذكر من جرأة ونجدة ففرح أصحاب رسول الله، صلى الله عليه وسلم، حين رأوه فلمّا أدركه قال لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، جئت لأتّبعك وأُصيب معك، قال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «تُؤمن بالله ورسوله»، قال: لا، قال: «فارجع فلن أستعين بمشركٍ» قالت: ثم مضى حتى إذا كنّا بالشجرة أدركه الرجل فقال له كما قال أول مرّة، فقال له النبي، صلى الله عليه وسلم، كما قال أول مرّة قال: «فارجع فلن أستعين بمشركٍ» قال ثم رجع فأدركه بالبيداء فقال له كما قال أول مرّةٍ «تُؤمن بالله ورسوله»، قال: نعم، فقال له رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «فانطلق»[1].

(١) صحيح مسلم: كتاب الجهاد والسير.

وفي غـزوة أحد سـأل قوم من الأنصـار رسول الله، صـلى الله عليه وسلم، أن يستعينوا بحلفائهم من يهود.. فـأبى، صلى الله عليه وسلم، فالمعركة هي معركة الإيمـان والكفر فـما ليهود بهـا؟ والنصر من عنـد الله حين يصـحّ التوكّـل عليـه وتتجـرّد القلوب له[1].

ويمكن للمسلمين أن يستعينوا بغيـرهم وقت الضرورة بشـرط أن يكون المسلمون هم الأقوى، وبيدهم الأمـر في متابعـة الجهاد أو وقف القتـال، أو إعلان الصلح، وإصـدار الأوامـر وكـل مـا يتعلق بـالقتـال كـما استعـان المسلمـون في العـراق ببني تغلب النصـارى، وفي بلاد الشـام بالجراجمة وذلـك أثناء الفتـوحـات الإسلامية أيام الخليفة عمر بن الخطاب، رضي الله عنـه، أما أن يكون المسلمون هم الأضعف، والأمـر بيدّ الآخـرين فمعنى ذلك أن المسلمين تبع بالآخرين أو بالأحرى ألعوبة بـأيديهم، ولم تكن الإستعانة من المسلمين بغيرهم وإنّما اتخذ أولئك المُتسلّطون المسلمين مطيةً لهم يُحقّقـون من ورائهم أغراضهم، إذ يـطلبون من المسلمـين التحـرّك إن رأوا في ذلك مصلحـةً لهم، ويأمـرونهم بـالكفّ عن القيـام بأيّ حـركةٍ إذا اقتضت حـاجتهم ذلـك، ويلفـظونهم إن دعت الضـرورة كـأن يتفـاهم المتسلّطون بعضهم مـع بعض، أو يُصلح بينهم طـرف ثـالث. إن مثـل هـذه الحـالات تُعـدّ ارتمـاء

---

(١) في ظلال القرآن ١/ ٤٦١، سورة آل عمران.

المسلمين في أحضان غيرهم وليس تعاوناً بين طرفين وبالتالي ليس استعانةً من المسلمين بغيرهم. وإن كثيراً من الناس ما يقعون في الخطأ فيتوهّمون أن هذا من باب الاستعانة بغير المسلمين، أو يُوهمون أتباعهم أنه من هذا الباب ليجرّوهم وراءهم لتحقيق بعض المصالح لهم، أو لارتباطٍ أساسيٍ لم يدركه الأعضاء، ولا يريد القادة أن يعرف ذلك أحد، لأنّ فيه خيانة لله ولرسوله وللمؤمنين، وفيه خيانة للمبادىء والأفكار. إن مثل هذه القيادات يجب بترها من الأساس وإلاّ قُضي على الجماعة بأيديها وأيدي أولئك الذين يسكتون عمّا اطلعوا عليه باسم العصبية الإقليمية التي بدأ قرنها يبزغ في العالم الإسلامي ـ مع الأسف ـ رغم أنه يرى ما يحلّ بالمسلمين في مشارق الأرض ومغاربها وهم لا يزالون يفكرون بالإقليمية وصلة المعرفة والقربى. ومن الأمور الغريبة أن بعض أصحاب العصبيات يتّهمون الآخرين بالعصبية زوراً وبهتاناً ويُقابلون ذلك بعصبيةٍ أكبر بكثيرٍ مما يتّهمون غيرهم، ومن أصعب الأمور ألاّ يعرف الإنسان نفسه وحقيقته وواقعه أو يعرف ويصرّ على ذلك ولو كان مخالفاً لدينه ومبادئه أو كإبليس الذي أُطلع على أن واحداً من الملائكة يأبى السجود لمخلوق الله الجديد فوقف ينظر من سيكون ذلك الملك الذي لن يسجد عندما أُمروا بالسجود فلم يكن إلاّ هو وقد سجد الملائكة أجمعون.

سبق أن ذكرنا أنّ المُتسلّطين جميعاً أعداء الحركة الإسلامية

حرصاً علـى مصالحهم ومنـاصبهم وإرضاء لسـادتهم، وإن كانت العداوة تختلف بين طاغٍ وآخر حسب طبيعته ونفسيته وشخصيته وأهوائه، فالمُتسلّط الآخر لم يكن ليقبـل طارئـين عليه من أنصـار جماعةٍ إسلامية إلا إذا كان على خلافٍ مستحكمٍ مع حاكم البلد الذي خرج منه المسلمون، فقبوله إذن لهم كـان حسب مصلحته الخاصة وبناءً على تخطيطه الـذاتي، فيُريـد أن يستفيد منهم ضـدّ خصمـه الطارىء، ولا شـكّ أنّهم يحصلون على بعض الفـوائـد فيجب عليهم وضع بعض النقاط في اعتبارهم.

إن المتسلّطين بعضهم أقرب إلى بعض وأحبّ، وإن ما يحدث ليس إلا أمراً طارئـاً فإذا مـا زال اتفقوا عـلى المسلمين وأذاقـوهم الويل، لذا على القادة المسلمين ألا يأمنوا للمتسلّط الـذي لجؤوا إليه ويحذروه ولا يُلقوا بأسرارهم إليه، ولا يُعطوه أسماء إخـوانهم فإن فعلوا فهم على درجـةٍ من الغباء والجهـل أو على ارتبـاطٍ مع المتسلّط فهم أعـوان له وخـائنون لحـركتهم ومبادئهم وفكـرهم، وأعداء للإسلام.

يمكن للإسلاميين أن يعرفوا شيئاً عن المُتسلّط من خلال نظرته ومعاملته للحركة الإسلامية في مصره فإذا كـانت في أمنٍ وحريـةٍ فضـرره أخفّ، والسكوت عنـه واجب مرحليـاً لأنـه أفضـل من غيره وخاصةً إذا قيس بأمثاله، وإذا عرفنا أن أكثر من في الأرض أعداء للإسلام. أما إذا كان حرباً عليها كأشد مـا تكون الحـرب

فيجب عدم التوجه نحوه أو التقرب منه فما هو إلاّ مُخادع أو ثعلب ماكر يعرف كيف يحصل على فريسته. فإذا ما أقدم القادمون وهم على علم فإن إقدامهم خيانة وتتنافى الخيانة مع الإسلام، لذا فإنهم كاذبون في دعوتهم وقد اتخذوهم طريقاً للوصول إلى مصالحهم في هذا الوقت الذي كثُر فيه المتاجرون بالإسلام في سبيل تمييع الدعوة له بتخطيطٍ من الأعداء.

ويمكن للإسلاميين أن يعرفوا شيئاً عن المتسلّط من خلال أعوانه فقد يكون هو مُتنمرداً ويعمل أتباعه على إصلاحه ويتجاوب معهم تدريجياً ويرغب في ذلك ويود اتباع طريق الخير أما إذا كان الأتباع على درجةٍ من السوء كسيدهم، وسبق لهم أن جُرّبوا وعُرفوا بعدائهم للإسلام وأهله فتلك قاصمة الظهر والفرار منه ومن أتباعه واجب دون معاداة أو حرب، ومن يعمل على التعاون مع أمثال هذا فعليه من الله ما يستحقّ فهو عدوّ مُبين للإسلام وأهله أيضاً.

إن المتسلّطين عادة أعداء للإسلام لأنه يقف أمام مصالحهم وأهوائهم فلا يمكن أن يكونوا أنصاراً للدعوة الإسلامية، وفي الوقت نفسه فهم أعوان لمن لا يعرف للإسلام إلاّ العداء، وهم على ارتباطٍ معهم للحفاظ على مراكزهم. ولذا نقول: إنه لا يصحّ التعاون مع المتسلّطين من هذا النوع.

٥ ــ هل يصحّ إعطاء بعض الطغاة أسماء الذين يتعاونون مع الإسلاميين سراً ولهم مراكز قيادية لإيهام أولئك الطغاة بقوة الإسلاميين في سبيل التعاون المشترك بين الطرفين؟.

ما دام الطغاة بعضهم أنصار بعض، وبعضهم أحبّ لبعض من الإسلاميين، وإذا وقع الخلاف بينهم فظاهري وموقت اقتضته السياسة أو دعت إليه النزوات الشخصية وهي أحوال زائلة لذا فكل سرّ يُعطاه أحدهم فسيسلمه للآخر، وإن لم يكن عن طريقه المباشر فعن طريق أتباعه الذين يعملون غالباً مع الطرفين كأنصار مزدوجين، لذا لا يصحّ إعطاء أحد الطغاة شيئاً من الأسرار الخاصة والتي يجب أن تبقى مكتومةً ولا يعرفها إلّا أصحاب الشأن.

٦ ــ هل يصحّ الكذب في سبيل كسب الدعاية والتأييد وجمع المال؟.

يقول تعالى: ﴿إنما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله، وأولئك هم الكاذبون﴾[1].

ويقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «إن الصدق يهدي إلى البر وإن البر يهدي إلى الجنة، وإن الرجل ليصدُق حتى يكون صدّيقاً، وإن الكذب يهدي إلى الفجور، وإن الفجور

---

(١) سورة النحل: الآية ١٠٥.

يهـدي إلى النـار، وإن الـرجـل ليكـذب حتى يكتب عنـد الله كذّاباً»(١). وعن صفوان بن سليم رضي الله عنه، قال: قلنا: يـا رسول الله أيكون المؤمن جبـاناً؟ قـال: «نعم»، قيل لـه: أيكون المؤمن بخيلاً؟ قال: «نعم»، قيـل: أيكون المؤمن كـذّاباً؟ قـال: «لا»(٢). ولمـا كان الله قـد وصف الـذين لا يؤمنـون بـآيـات الله بالكذب، ونفى رسـول الله، صلى الله عليـه وسلم، الإيمان عن الكاذبين، لذا لا يصحّ بـأيّ بصورةٍ من الصـور أن يلجأ المسلم إلى الكذب ومهما كانت الغاية له أو الأرباح التي يجنيها.

إن هذه الأعمال والأقوال أو بعضها أصبح شائعـاً عند بعض الحركات التي تعمل أو تدّعي العمل للإسلام، وهذا ما أجهض الصحوة الإسلامية، واستنكر المسلمون هذه التصرّفات، أما غير المسلمين أو غير الملتزمين في الداخل فيرون هؤلاء يُمثّلون الإسلام فزاد ابتعادهم، وزاد حربهم، وظنّوا أن هذا الإسلام، ولبعدهم لا يعرفون إلاّ هذا، فلا يعرفون أن الإسلام شيء والذين يدعون العمل له شيء آخر، إذ من الواجب ألا يـرون من المسلمين إلاّ صورة صحيحةً عن الإسلام، وخاصةً أن جماعة تسير وراء هؤلاء أغلبها من أفضل الشبـاب لا يرون من بعض قـادتهم إلاّ جانب

---

(١) أخرجه البخاري في الأدب، ومسلم في البر، وأبو داود في الأدب، والترمذي في البر، والدارمي في الرقاق، وابن ماجة، وأحمد.
(٢) أخرجه مالك في الموطأ.

الخير، وهو ما يسمعونه منهم فيظلّون سـائرين وراءهم منـدفعين خلفهم مدافعين عنهم، فيعمى الأمر على الكثير إذ يأخذ الصورة من هؤلاء الشباب ويأخذ بعضهم من أولئك المُتنطّحين للزعامة ـ ولا حول ولا قوة إلّا بالله العظيم ـ.



الفَصْلُ الـرّابع

القيَـادة الإسْلاميَّـة

كثيراً ما تتردّد في الأوساط العامة أو اللقاءات الخاصة الحاجة إلى رجلٍ يقود هذه الأُمّة ويُنقذها مما تُعاني، ويأخذ بيد أبنائها نحو ساحل النجاة، وكأنّ القائد يأتي إلى الأُمّة من خارجها أو يهبط عليها من السماء، وربّما هذه الصيحات صادقةً في قولها مُخلصةً في نيّتها ولكنها في الحقيقة جاهلة للواقع أو أنها لا تدري الحاضر.

إنّها صيحات تنطلق من أفواهٍ يجهل أصحابها الواقع حقّاً لأنّ القائد إنما هو ابن البيئة، قد يُبرزه ردّ الفعل لما تُعاني الأُمّة، وقد يُظهره دفع المجتمع لتحقيق غرضٍ أو تأمين حاجةٍ تتطلبها أُمّته. والمجتمع الصالح يوفّر القادة للأُمّة، أو يسير وراء من يجد فيه مُؤهلات الزعامة، فقد تكلّم بعض أصحاب عليّ بن أبي طالب رضي الله عنه أمامه عن اجتماع الأُمّة وتكاتفها أيّام الخليفة

عمر بن الخطاب رضي الله عنه وتفرّقها أيّام خلافة عليّ رضي الله عنه فقال رضي الله عنه كنّا أصحاب عمر وأنتم اليوم أصحابي.

إنّ الجماعة الطيبة هي التي تنصح القائد فيستقيم أمره، وتطيعه فيُخلص لها، وتنقاد له فيسير بها إلى طريق الخير، وتلتف حوله فيقف بقوةٍ في وجه أعدائه، وتصبر معه فينتصر، ويُحقّق الفوز ـ بإذن الله ـ.

وإنّ الجماعة الخبيثة هي التي تُنافس قائدها، ويبغي كلّ منهم القيادة، ويرغب في السيادة، ويحسد قائده، وينسى ما منحه الله من مُؤهلاتٍ، وما أُعطي هو من صفاتٍ. إنه لا يقوم للإصلاح وإنّما للحسد الذي في نفسه، ولا يبغي النصيحة إذ ليس هذا طريقها، وإنّما يسعى لنفسه ويدعو لشخصه، وهذا ما يُفرّق الجماعة ويُشتّت شملها، ويجعل الأعداء يخترقون صفوفها واحتواء ما يمكن احتواؤه من أفرادها وكسبهم إلى صف أعداء دعوتها.

إنّ البيئة الصالحة تُنتج من أفرادها قادةً وتُؤهّلهم للسيادة، وإنّ البيئة غير الصالحة تكثر فيها الفِرقة، وتختلّ فيها الموازين، وتكثر الشائعات، وتضيع الحقائق، ويزداد طالبو الزعامة، والراغبون في المنصب مع عدم أهليتهم، ويتيه الناس، ولا يعرف أحد وراء من يسير؟.

إن المجتمع الذي نعيش فيه اليوم لا يعرف ـ مع الأسف ـ حاضره، ولا يعلم أفراده أن الذين معهم أو أمامهم إنما هم عليهم، وأنّ الذين يُريدون رفعتهم لا يعملون في الواقع إلاّ لذلّتهم، وأنّ أصدقاءهم ليسوا إلاّ خصوماً لهم، وهكذا تضيع المعايير بعد سقوطٍ إثر سقوط، وتختلّ القيم بتفاهةٍ إثر تفاهة مع الإدعاء بعظمة العمل، ويهتزّ المجتمع، وتتخلّله الأمراض، ويُؤذن ذلك بانهيار الأُمّة.

إنّ التربية أساس سلامة المجتمع، وإنّ الإيمان أساس حياته وبقاء جريان روحه في جسمه ونبضات قلبه في داخله، وما دامت النفوس سليمةً تمتلىء بالإيمان، وتشعر بالرفعة به، وتعتزّ بالعقيدة فلن تُؤثّر فيها السقطات، ولن تُحطّمها الضربات، ولن يُذلّها طغيان مهما عتا ولا يُخضعها بغيّ مهما تجبّر.

لقد أُصيبت الأُمّة المسلمة بالضعف الذي نزل بها واعتراها الوهن الذي حلّ بها نتيجة الفرقة والاختلاف على المنهج الذي ارتضاه الله لها، فجاء الصليبيون فجاسوا خلال ديار الشام فزاد ضعف الأُمّة على ضعفٍ ووهنها على وهنٍ ولكن بقيت النفوس سليمةً نسبياً والإيمان فيها قوياً نسبياً فأبرزت صلاح الدين الأيوبي الذي طوّح بالصليبيين، وأعاد للأُمّة عزّتها، وبنى لها مجداً جديداً، وعادت المفاهيم الإسلامية إلى سابق عهدها.

وجاءت جحافل المغول من الشرق فحطّمت بعض الركائز، وأخافت الناس بوحشيتها فانهارت الأعصاب، وتقطّعت الأوصال، وظنّ بعضهم أنه لا أمل بالوقوف في وجه المغول حتى خشي ابن الأثير تسطير الأحداث إذ رأى فيها نعي للإسلام فأبى أن يكون على يده، ولكن في الأُمّة إيماناً سيّرها وراء سيف الدين قطز كما أبرزت الظاهر بيبرس فوقفوا أمام المغول وانتصروا عليهم في عين جالوت، وتكررت الإنتصارات، وتوقّف المدّ المغولي، ثم لم يلبث أن ذاب المغول في المجتمع وأصبحوا جزءاً من الأُمّة التي عادت لها منزلتها ورجعت إليها مكانتها.

إنّ الخطر كل الخطر يكمن في الجماعة إذا تساهلت بالتربية، وتركت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتخاذلت عن كلمة الحقّ وعندها لا تستطيع إيجاد القائد أو إبراز رجل الساعة، ويطلب أبناؤها المستحيل، ويبحثون عن القائد من غير جدوى. ولكن عندما تكون الجماعة سائرةً على النهج القويم فإنها تبتر القائد إذا ما انحرف وتسلّم قيادها لغيره.

فالأصل إذن في الجماعة لا في القيادة، والجماعة هي التي تُظهر القائد وتُبرزه، ولا تطلب المستحيل بإيجاد عنصرٍ فذٍّ ينشأ من وسطٍ مُهلهلٍ مُتعب. فالجماعة المستقيمة على الطريق لا يظهر منها إلّا قائداً عظيماً، والجماعة المنحرفة لا يقودها إلّا فرد منها.

قامت جماعة على أساس العقيدة تدعو إلى تطبيقها وتنشد تحقيقها، وانضوى الناس في صفوفها، وانتظموا تحت لوائها، غير أن تربيتهم لم تكن واحدةً، ونيّاتهم في صدقها متباينة فكانت الجماعة خليطاً غير متجانسٍ، فيها من يريد القيادة ويعمل لها، وفيها من يبغي الخير ويدعو له، وفيها من يسير مع الركب إذا الركب انطلق، ومع الزمن بدأ الصفّ يُنقّى، وتزيده المحن تصفيةً ووضوحاً. وقد قادها رجل أهلاً لها جمع العلم والخطابة، وحوى الفقه والفصاحة، لسانه عفيف، ويده نظيفة، وذهنه مُتّقد، وقلبه مُتّسع، وفكره ناضج، مارس الإمرة، وتمرّس على الشدائد، خبر الناس وعجم عيدانهم، فيه ملاحة أهل حمص، وطرفة أهل مصر، وأنفة الشام وحكمتهم، مشى بالجماعة مشية القائد الفذّ، فانسحب من لم يرق له الخطّ، وانصرف من كان مُتعجّلا بالمنفعة، فاستقام الأمر نسبياً وانسجم الصفّ تقريباً، ولما كانت شخصيته كبيرةً فقد طغى على غيره ولعبت الأهواء في عقول أصحابها ممن يريدون الرفعة دون مُؤهّل والمنصب من غير استحقاق فناوؤوه بالخفاء وتكلّموا عنه بالسرّ، ولم يجرؤوا على مواجهته، ونال منهم ما لم ينل من ألدّ أعدائه وأعنف خصومه.

قادهم مُدّع انكشف أمره بعد مدةً وظهر أنه يعمل بتوجيه جهةٍ، ويرتبط بإنسان سبق أن ذاق منه المسلمون أعظم البلاء، وحلّت بهم منه نكبة بناء على رغبةٍ من جهةٍ صليبيةٍ. غير أن تماسُك أكثر

أفراد الجماعة قد حماها وأبقاها. ومضى القائد إلى سبيله ـ رحمه الله ـ.

وخلف القائد تلميذه وزميله، ولم يكن أقلّ من أستاذه وسلفه، فوجّه جهده إلى التربية فزاد تماسك الجماعة، وأعطاها شخصيتها المُتميّزة، فحمل عليه من كان يستفيد من خارجها منها. ولما كان لا يُريد شيئاً من هذه الدنيا سوى رضا خالقه لذا كان بعيداً عن الجاه، غير راغبٍ في المنصب، زاهداً في المال فعجز القريب عن شرائه والغريب عن احتوائه وهذا ما سبّب له المتاعب إذ نقم عليه القريب في الداخل وحقد عليه الغريب في الخارج واستاء منه الأعضاء الذين لم يستفيدوا من الجماعة ومركزها عندما ارتفع لتعالي قائدها وعدم رغبته في أن يكون حمل الدعوة لمصالح خاصّة وأغراضٍ شخصيةٍ، غير أن المواجهة التي كانت قائمةً بين الجماعة وأعدائها أبقتها صفاً واحداً وتحت راية يحملها قائدها بكل أمانةٍ وإخلاص، ولكن ما أن وجّهت إليه السهام وأُخرج من البلاد حتى ارتفعت أصوات من لم يكن يدفع عن نفسه، وليس له من مُؤهّلاتٍ، ولكن بقي مغموراً أمام سمعة القائد ولا يكاد يبين بالمقارنة معه، فما العمل؟.

لقد تجمّع أصحاب الأهواء، ومن احتواهم الأعداء، ومن سبق أن ابتعد عن الصفّ من الأعضاء، ومن كان قريباً من الأصدقاء، ومن كان يكره القائد لأنه منعه من تسخير الجماعة

لمصلحته، لقد أجمع هؤلاء كيدهم وأتوا صفّاً مُتخذين الكذب وسيلةً، والمكر طريقةً، والخداع مذهباً، وغدت الجماعة تضمّ أعضاء غير مُتجانسين، فتغلّب أصحاب الأهواء على المُخلصين واستمرّ الخلاف ما داموا مجموعتين حتى إذا اتسع الخرق على الراقع فضلّ المخلصون العمل وحدهم، وتركوا الصراع أو أصحاب الهوى وشأنهم.

لما انفرد أولئك الأعضاء غير المُتجانسين أو الذين جمعتهم محاربة القائد انصرف كلّ يعمل لمصلحته، هذا يعمل لهواه، وذاك لمن احتواه، وثالث يجمع بين النقطتين، وأغرب ما يكون أنّ الذي سبق أن قدّموه قد اتهموه بالاحتواء، ولم يكونوا كاذبين، واتهمهم بالعمل للمصالح الشخصية والالتواء، وكان صادقاً. وهكذا تكون الجماعة عندما لا تكون مُتجانسةً، ولم يتربّ أفرادها على سلامة العقيدة إذ جُمعوا بسرعة أشتاتاً، ومن جماعات شتى. وأبرزت هذه الجماعة عندما أصبحت غير متجانسة قادةً غير صالحين،ولما كانت متجانسةً كان قادتها على أعلى مستوى القادة. فالجماعة هي التي تُنتج القادة، ولا يأتي القائد ليبني جماعةً إذ لا تُطيعه ما دامت غير سليمة النفوس، غير مُتجانسة الفكر، غير صافية العقيدة.

إنّ للقيادة مؤهلات لا توجد في كل فردٍ، فإذا ما طلبها من لم يكن مُؤهّلاً لها وجد المُعوّقات وإذا أصرّ عليها اضطر أن يلجأ إلى

طرقٍ غير شريفةٍ ولنستعرض أهم هذه المؤهلات حسبما أراها.

١ ـ إنّ أولى المؤهلات القيادية **الكرم** فلا يُمكن لقائد أن يكون بخيلاً إذ ينفر عن البخيل ذووه، ويبتعد عنه أصدقاؤه، ويُهاجمه أعداؤه حيث يجدون ثغرةً يُوجّهون منها وعليها سهامهم، وإن عبدالله بن الزبير رضي الله عنهما أكثر ما وُجّه إليه من نقدٍ أنّه كان مُقتصداً، ولم يكن بخيلاً أبداً.

٢ ـ ومن المؤهلات **الشجاعة** فإن القائد الذي لا يجرؤ أن يُصرّح برأيه، أو يُصدر بياناً بتوقيعه، أو يُواجه الخصوم بفكر ليس بقائد وإنما عليه أن يتنحّى عن الصدارة فإن لم يفعل لا يلبث أن يُزاح بشكلٍ طبيعي. فالقائد الحقيقي هو الذي يتحمّل المسؤولية كاملةً برأيه وفكره وبيانه بل ويتحمّل مسؤولية جماعته إذا وقعت في محنةٍ ويكون في طليعة المُتعرّضين لسهام الخصوم. والقائد العسكري الشجاع هو الذي يكون في طليعة المتقدّمين، وفي مُؤخرة المُنسحبين، ومع الجند في سعادتهم وبجانبهم في ضيقهم، يعدّهم أبناءه، وأنه المسؤول عنهم. والقائد السياسي الشجاع هو الذي يُواجه بفكره خصومه، ويُدحض رأيهم بالبيّنة، ويُقارعهم بالحُجّة، يُظهر عيوب سياستهم حيث لا يخشى فضح شيءٍ عنده لأنه واضح الاتجاه، نظيف التحرّك، ظاهر المعالم الشخصية، شريف المعاملة، عفيف اليد واللسان.

٣ ــ ومن المؤهلات القياديـة **انسجام الخط مـع الفكر** فصـاحب الدعوة الإسـلامية لا يصـحّ له أن يتّخـذ الكذب وسيلةً لتحقيق كسبٍ سياسيٍ لأنّ الكذب يتنافى مع الإسـلام، كما لا يصـحّ له الارتبـاط مـع غـير أصحـاب فكـرٍ إسـلاميٍ بـاسم التعـاون أو المصلحة أو المرحلة أو. . . . وبخاصةٍ إن كـانوا أكـثر منه قـوةً أو أكبر دعماً أو أصحاب سلطةٍ ونفوذٍ. . . . . لأنّ هـذا لا يتّفق مع الإسلام وسيكون المأكول، وإنّ كـلّ تعليلٍ فيـه مغالـطة وكذب صـريح. وأنكى من ذلـك إن كان المـرتبط معه مـرتبطاً بغـريب فعنـدها يكـون ذنباً لـذنب، والمسلم لا يكون عميـلاً لعدوٍّ، ولا نصيراً لمرتبطٍ، ولا صديقاً لُملحدٍ، ولا جسراً يُعبر عليه، وأصعب من هذا وذاك أن يُصرّح باستمرار أن صديقه موالياً لأعداء الله، ولكن كانت صداقته لضرورةٍ وارتباطه معـه لمرحلةٍ، وفـوق هذا يُثني عليه الثناء العظيم ويعدّه وحزبه دعاة للإسـلام مع أنـه قبل ارتباطه به كان عدواً من أعداء الله، ويعـدّه هو هكـذا، ويتكلّم عنه باستمرارٍ بالسوء.

٤ ــ ومن المؤهلات الضرورية للقائـد **أن يكون فـوق العصبيات** التي تنشـأ بـين المنـاطق أو بـين المـدن أو بـين الأجنــاس وأهـل اللُّغات، وإذا لم تمنعه عقيدته من أن يكـون كذلـك، وهي أُولى المفـاهيم الإسلاميـة فإنّ مـركزه يتـطلّب منه ذلـك. ومن لم تَحُلْ عقيدته بينه وبين العصبيات فلا رادّ له، ولا خير فيه.

٥ ـ ومن الأُسس الضرورية لمن يتصدّى للقيادة **ألا يحمل حقداً** فقد يتعرّض أثناء المسيرة لخلافٍ في الرأي بينه وبين إخوانه فإذا ما حقد على صاحب رأيٍ أو أبطن كُرهاً لمن خالفه أو تعصّباً لرأيه فإنه لا يصلح للقيادة وخاصةً بين أصحاب الإتجاه الإسلامي، لأنه ليس في الإسلام أجنحة في الجماعة الواحدة وأفكار مُتباينة أو دعوات مختلفة وإنّما كلّها تنبع من نبعٍ واحدٍ وتشرب من منهلٍ واحدٍ ألا وهو المنهج الإسلامي. والمطلوب في صفات القائد أن يكون ذليلاً لإخوانه عزيزاً على أعدائه كما وصف الله سبحانه وتعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفّار رحماء بينهم تراهم رُكّعاً سُجّداً يبتغون فضلاً من الله ورضواناً سيماهم في وجوههم من أثر السجود. . . .﴾[1] ويقول: ﴿يا أيها الذين آمنوا من يرتدّ منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقومٍ يُحبّهم ويُحبّونه أذلّةٍ على المؤمنين أعزّةٍ على الكافرين يُجاهدون في سبيل الله ولا يخافون لومة لائم، ذلك فضل الله يُؤتيه من يشاء، والله واسع عليم﴾[2].

٦ ـ وعلى القائد أن يستشير إخوانه، ويُناقشهم في آرائهم،

---

(١) سورة الفتح: الآية ٢٩.

(٢) سورة المائدة: الآية ٥٤.

ويحترم الرأي المُخالف ويستمع إليه تماماً حتى نهاية عرضه، ويقبل النصح، ويُعرض عن الخصومة، وليس معنى الاستشارة الإلزام وإنما لرؤية الدليل والسماع إلى الحُجّة، وتقليب الأوجه ثم يُعطي رأيه، ويُصدر حكمه وما دام ينبع من المنهج الإسلامي فلا تعارض ولا تضارب وإنّما اجتهاد وتغليب لوجهة نظرٍ.

٧ ــ على القائد أن يكون **مُستوعباً لدعوته**، مُلِمّاً بفكرته، مُحيطاً بها كي يستطيع طرحها وتبيان خصائصها ومزاياها، ويُناقش خصومه ويُفنّد آراءهم ويدحض حججهم، وفي الوقت نفسه كي لا يُخالف ما يدعو إليه فيقع وتلوكه ألسنة خصومه وإخوانه على حدٍّ سواء. والاعتماد على الأنصار في الفقه والفكر أمر صعب فهو ليس بجانبهم دائماً، وقد تُحوجه الظروف، وتدعوه اللقاءات إلى السؤال بل إنه بارز يُسأل في قضايا دعوته ويُستفتى في أمور عقيدته، ويُباحث في شؤون فكرته. وأما أولئك الذين يربطون جماعتهم بتياراتٍ عالميةٍ فيذمّون هذا المعسكر دون ذاك أو يُعلنون الحرب الكلامية على واحدٍ دون الآخر، ومثلهم أولئك الذين يرتبطون بسياسةٍ مُعيّنةٍ، ويُكبّلون من ورائهم جماعتهم فهؤلاء وأولئك ليسوا من الزعامة بشيء وليسوا من القيادة بشيء بل لا يستحقّون من الأساس أن يكونوا أعضاءً في جماعةٍ إسلاميةٍ.

٨ ـ يجب أن يكون القائد على معرفةٍ تامةٍ بعصره وما يجري فيه من صراعاتٍ دوليةٍ، واتجاهاتٍ سياسيةٍ، وتناقضاتٍ فكريةٍ، وأطماعٍ استعماريةٍ، واتفاقاتٍ على تقسيم مناطق النفوذ، وتوزّع الأعوان لكل طرفٍ، وما يمكن أن يكون من تحالفاتٍ في السرّ، وما يُعلن للاستهلاك المحلي فإنّ هذه المعرفة تقي الجماعة من مزالق يمكن أن تقع فيها، أو تزلّ قدم قائدها فتهوي معه، كما يمكن أن يُجنّبها كثيراً مما يمكن أن تتعرّض له.

٩ ـ يجب أن يكون القائد ذا أفقٍ واسعٍ في الرؤية السياسية الحاضرة والمستقبلية، فلا ينجرف في حديثٍ، ولا ينحرف في وضعٍ، ويتوقّع ما يمكن أن يحدث نتيجة ما يتصوّر فيتصرّف من خلاله ويتحدّث من منطلقه، أما صاحب الأفق الضيق فيزلّ في كلّ مُعضلةٍ وينعطف في كلّ مُشكلةٍ يضيع في المتاهات السياسية، ويتيه في المنعطفات الدولية. فإذا ما كانت بلاده في حربٍ أو اختلاف مع جاراتها يجب أن يكون دقيقاً في كلّ نقطةٍ، ينطلق من مُنطلقٍ إسلاميٍ، بعيداً عن كلّ نقدٍ أو مُخالفةٍ لعقيدةٍ. ألم تر إلى أولئك النفر المعارضين لدولتهم الذين يُصرّحون من غير وعيٍ أنهم سينقضّون على الحكم إذ ما دوهمت بلادهم من قبل أعدائها اليهود. ألا يُفهم أنهم على اتفاقٍ مع الأعداء اليهود؟ فماذا يكون؟ إنهم سيسقطون وجماعتهم ويُلفظون من المجتمع كلّه بسبب تصريحٍ فارغٍ من رجلٍ فارغٍ.

١٠ ــ يجب ألّا يكون القائد مُغفّلاً يسير به كلّ سياسيٍ في كلّ دربٍ ويتلاعب به في كلّ ساحةٍ، وبالتالي يجب ألا يكون مُخادعاً يحرص على اللعب بالآخرين، وإنّ هناك كثيراً من الرجال يرغبون أن يقفوا وراء آخرين يُسمّونهم قادة ويتحرّكون من خلفهم بل ويلعبون بهم، إن أمثال هؤلاء لقادة دمى عرف التاريخ كثيراً من نماذجهم. وكان عمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: ما كنت خبّاً ولا الخبّ يخدعني.

١١ ــ يجب أن يكون القائد قوياً، ولا يكفي أن يكون تقيّاً ورعاً يقول تعالى: ﴿قالت يا أبت استأجره، إنّ خير من استأجرت القويّ الأمين﴾[١]. ويقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «المؤمن القوي خير من المؤمن الضعيف وفي كل خير. . . . .»، وإنّ رسول الله، صلى الله عليه وسلم، سلّم القيادة لخالد بن الوَليد وعمر بن العاص رضي الله عنه ولم يُسلّمها لعبد الله بن مسعود رغم سابقة عبدالله وفضله وتأخّر خالد وعمرو. وعن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه قال: قلت يا رسول الله ألا تسعملني قال فضرب بيده على منكبي ثم قال: «يا أبا ذر إنّك ضعيف، وإنّها أمانة، وإنها يوم القيامة خزي وندامة، إلّا من أخذها بحقّها وأدّى الذي عليه فيها»[٢].

---

(١) سورة القصص: الآية ٢٦.

(٢) رواه مسلم في باب الإمارة، وأحمد في مسنده.

١٢ ـ وأخيراً فإن على القائد أن يكون دائم التفكير في دعوته، وفي مصلحة إخوانه أكثر من مما يُفكّر في مصلحة نفسه ومصلحة أبنائه.



حقوق القائد وواجباته:

استعرضت بشكلٍ سريعٍ المؤهلّات التي يجب أن تتوفّر في القائد، وأريد أن أستعرض الآن بعض حقوق هذا القائد، وما يترتّب على أتباعه أن يقوموا به تجاهه.

فالقائد لم يُبايع ليكون صورةً يملك ولا يحكم، ولم نُولّه حتى لا نُطيعه، أو لنلعب من خلفه ونبدأ بالإساءة له مُنافسةً وإشاعةً وافتراءً، ومن الواجبات علينا:

١ ـ السمع والطاعة: عن جُنادة بن أبي أُميّة قال: دخلنا على عبادة بن الصامت وهو مريض، فقُلنا: حدِّثنا ـ أصلحك الله ـ بحديثٍ ينفع الله به، سمعته من رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال: دعانا رسول الله، صلى الله عليه وسلم، فبايعناه فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعُسرنا ويُسرنا وأثرةٍ علينا، وأن لا نُنازع الأمر أهله قال إلّا أن تروا كفراً بواحاً عندكم من الله فيه برهان[1]. فمنذ أن يُبايع القائد ويُولّى الأمر على المسلمين يجب السمع منه

(١) أخرجه البخاري في الفتن، ومسلم في باب الإمارة، والنسائي في البيعة، وابن ماجه في الجهاد، ومالك في موطئه، وأحمد في مسنده.

والطاعة له في كل الحالات في الرخاء وفي الشدّة، في السرّاء وفي الضرّاء في حضوره وفي غيابه، فإذا ما أُخرج القائد من بلده، أو وقع أسيراً بيد الأعداء يبقى هو القائد سواء أكان يستطيع أن يتصل برعيته أم لا يستطيع، ولكن ينوب عنه نائب فإذا ما رجع أو فُكّ أسره عادت إليه القيادة، وسلّم له نائبه الأمر، ففي هذه الحالة يكون القائد قد أُعطي شيئاً من حقّه، إذ لم يُخرج إلاّ لكونه قائداً أو لم يقع أسيراً إلا لصفته المتقدّم لجنده، أما إذا خلعنا بيعته فإنّنا لم نُؤدّه حقّه، ولم نكن على مستوى الطاعة، أو على مستوى الرعية الصالحة. وإذا ادعى آخر الإمرة، وقفت الأُمّة بجانب من سبق لها أن بايعته، وقاتلت المُدّعي لقول رسول الله، صلى الله عليه وسلم: «..... ومن بايع إماماً فأعطاه صفقة يده وثمرة قلبه فليطعه إن استطاع فإن جاء آخر يُنازعه فاضربوا عنق الآخر»[1].

ويجب أن تكون الطاعة في غير معصيةٍ، عن عليّ بن أبي طالب أن رسول الله، صلى الله عليه وسلم، بعث جيشاً وأمّر عليهم رجلاً فأوقد ناراً، وقال: ادخلوها فأراد ناس أن يدخلوها، وقال آخرون: إنا قد فررنا منها، فذُكر ذلك لرسول الله، صلى الله عليه وسلم، فقال للذين أرادوا أن يدخلوها: لو

---

(١) أخرجه مسلم في باب الإمارة عن عبدالله بن عمرو بن العاص، وأبو داود وابن ماجه في باب الفتن، والنسائي في باب البيعة، وأحمد.

دخلتموها لم تـزالوا فيهـا إلى يوم القيـامة، وقـال للآخـرين قولاً حسناً، وقال: لا طاعة في معصية الله إنما الطاعة في المعروف[1].

ونعرف من هذا الحديث مقدار الطاعة للقائد، ويكفي أن نـذكر قول الله تعالى ﴿يا أيّها الذين آمنوا أطيعـوا الله وأطيعوا الـرسول وأُولي الأمر منكم، فإن تنازعتم في شيءٍ فردّوه إلى الله والـرسول إن كنتم تُؤمنـون بـالله واليـوم الآخـر، ذلـك خـير وأحسن تـأويـلاً﴾[2]، وقـول رسـول الله، صـلى الله عليـه وسلم، «من أطاعني فقد أطـاع الله، ومن عصاني فقـد عصى الله، ومن أطاع أميري فقد أطاعني ومن عصى أميري فقد عصاني»[3].

٢ ــ النصـح: عن تميم الداري أن رسـول الله، صـلى الله عليـه وسلم، قـال: «الدين النصيحـة» قلنا: لمن؟ قـال: «لله ولكتابـه ولرسوله ولأئمّة المسلمين وعامّتهم»[4]. ولا يقصد بنصح الأئمـة إرشادهم إلى طريق الصواب وإنما أوسع من هذا بكثير إذ يُقصد إضـافـةً إلى إبـداء الـرأي ووجهـة النـظر معـاونتهم عـلى الحقّ، والطاعة لهم، وتنبيههم على بعض الملاحظات، وتذكيـرهم برفقٍ عـما غفلوا عنـه، وتـأليف قلوب النـاس لـطاعتهم، والصـلاة

---

(١) أخـرجه البخـاري في الأحكام والمغـازي، ومسلم في الإمـارة، وأبـو داود في الجهاد، والنسائي في البيعة، وأحمد.

(٢) سورة النساء: الآية ٥٩.

(٣) متفق عليه، أخرجاه في باب الإيمان.

(٤) متفق عليه، أخرجاه في باب الإيمان.

خلفهم، والجهاد معهـم، وأداء الصدقـات إليهم، والدعـاء لهم بالصلاح، فإذا أدّت الرعية ما عليهـا من النصح استقـام الأمر، واعتقـد أنه لـو كان في القـائد بعض الـزّلات لصلح، وسـار في الطريق المستقيم.

٣ ــ التقـدير: وهـو معنى واسع أيضـاً، ولا يُقصد بـه الاحترام فقط، وإنما تقدير أعماله، وآرائه، وعدم الحديث عنه إذا كبرت سنّـه. والأصل في القيـادة الاستمرار، فقـد مرّ معنـا ذلـك، ولم يُبدلّ القائد ما لم يُظهر كفراً بواحاً، أو يختلّ عقله، وقد رأينا بقاء الخلفاء الراشدين في الخلافة حتى يتوفّى الـواحد منهم وسـار على نهجهم الخلفاء فيما بعـد. ومن الأمر الغـريب أن نرى في الآونـة الأخيـرة الحديث عن ضـرورة اعتزال القيـادة واستبدالهـا بعنصر الشباب، ويتكلم في هذا أُناس باسم الإسلام.

ما دام القائـد مُخلصاً يقـوم بدوره حقّ القيـام، ويُؤدّي واجبه تماماً، وقد ضحّى بالكثير، وتحمّل الشدائد، وأصابته المحن، فهل من الاعتراف له بالفضل إبعاده عن الساحة؟ صحيح أن ما فعله في سبيل الله، وأنّ أجره عـلى الله، ولكن من واجبنا أن نقـدّر له ذلـك. وإذا تركنـا الخلفاء الـراشدين وهم الأسـوة لنا، فهـل في الحياة الحديثة من زعيمٍ أو قائـدٍ لجماعـةٍ أو حزبٍ يتـرك منصبه ليحلّ محلّه الشباب. إن هذا الحديث وأمثاله إنما ينمّ على سـريرةٍ غير طيبةٍ، ومن ورائه هدف إن لم يكن من قـائله مباشـرةً، فإنمـا

من الذي بدأ به، وما قائله إلّا مُردّداً من غير معرفةٍ.

كلما تقدّمت السنّ بالإنسان ازداد خبرةً واكتسب معرفةً، وعركته الأيام فأخذ الحكمة، وعرف الرجال فاستفاد تجربةً، واطلع على خفايا، ودرس ألاعيب السياسة، أحين ارتقى في سُلّم الخبرة قلنا له: تنحّى عن الميدان ليحلّ مكانك ناشىء لا يعرف شيئاً من التجربة؟.

هل من المصلحة أن يقود الجماعة شاب تُسيّره العاطفة لا العقل؟ وتتحكّم به النزوة قبل الحكمة؟ وكثيراً ما ورّط الشباب جماعتهم في مشكلاتٍ كادت تقضي عليها إن لم نقل قد قضت عليها في كثيرٍ من الأحيان، ولعلنا نذكر في هذا المقام حماسة الشباب من صحابة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، وهي التي جعلت الرسول الكريم يُوافق للخروج إلى أُحُدٍ بعدما كان قد رأى البقاء في المدينة والدفاع عنها وقتال المهاجمين من قريشٍ من داخلها. ولما كانت بعثة رسول الله، صلى الله عليه وسلم، في الأربعين من عمره لذا أرى ألّا يتسلّم قيادة الأمة شاب دون تلك السنّ. وأرى إمكانية استمراره في القيادة حتى سنّ السبعين، ثم يعتزل هو الأمر، ولا يُعزل، ولا يطلب منه، فرسول الله، صلى الله عليه وسلم، يقول: «عمر أُمّتي من ستين سنة إلى سبعين سنة»[1]. ولهذا ارتأيت سنّ السبعين التي يمكن

---

(١) أخرجه الترمذي في الزهد، وابن ماجه في الزهد أيضاً.

أن يبقى فيها القائد. وقلت: لا يُعزل لأن الخليفة الراشدي عثمان بن عفان، رضي الله عنه، قد تولّى الخلافة وهو ابن تسعٍ وستين سنةً، وبقي في خلافته حتى استشهد رضي الله عنه.

وإذا كان رسول الله، صلى الله عليه وسلم، قد سلّم قيادة جيشٍ لأُسامة بن زيدٍ رضي الله عنهما وهو ابن ثماني عشرة سنة وفي الجيش شيوخ المهاجرين والأنصار فذلك تبيان للجواز وتشريع لذلك غير أن الأمثل في القيادة أن تزيد السن على الأربعين.

إنّ أولئك الذين لا يعرفون للقائد قدره، ويتكلّمون عنه في المجالس الخاصّة واللقاءات المنحصرة هم الذين يُسبّبون الفتن في المجتمع. وهم أبعد ما يكون عن معرفة حقيقة الإسلام، لقد بدأت الفتنة في التاريخ الإسلامي بعبدالله بن سبأ اليهودي ولا يزال لأتباعه والذين يسيرون على نهجه دور في الحياة القائمة اليوم في بلداننا الإسلامية، وبدأت الفتنة في اللقاءات الخاصة والكلام بالخفاء.

هذه بعض حقوق القائد على الرعيّة، وعليه مُقابل ذلك واجبات يجب أن يُؤدّيها لشعبه وهي:

١ ــ عدم سؤال الإمارة: إن الرجل ليس هو الذي يُقدّر صلاحيته للإمرة، وكثير من الناس ما يُعطون أنفسهم أكثر من حقّها، ويُقوّمونها بأكثر من واقعها، فإذا سعى كلّ إلى الإمرة وقع

الخلاف، وحدثت الفتنة. أما أهل الشورى فهم الذين يعرفون من يستحقّها ويطلبونها له، فعن أبي موسى الأشعري، رضي الله عنه، قال: دخلت على النبي، صلى الله عليه وسلم، أنا ورجلان من بني عمي، فقال أحد الرجلين: يا رسول الله أمّرنا على بعض ما ولّاك الله عزّ وجلّ، وقال الآخر: مثل ذلك، فقال: «إنّا لا نُولّي على هذا العمل أحداً سأله ولا أحداً حرص عليه»[1]، ومن الذين يطلبونها الذين يُرشّحون أنفسهم لها[2].

٢ ـ إقامة حدود الله: وهي المهمة الرئيسية المنوطة بالإمام، قال تعالى: ﴿وأن احكم بينهم بما أنزل الله ولا تتبع أهواءهم واحذرهم أن يفتنوك عن بعض ما أنزل الله إليك، فإن تولّوا فاعلم أنّما يُريد الله أن يُصيبهم ببعض ذنوبهم، وإن كثيراً من الناس لفاسقون. أفحكم الجاهلية يبغون ومن أحسن من الله حُكماً لقوم يوقنون﴾[3]. فإذا لم يُقم القائد حدود الله، فإنما خلعه واجب كي لا ينقلب الأمر إلى وضع جاهلي بعيدٍ عما يُريده الله للأُمّة المُسلمة وعما أناط بها من مُهمّةٍ ومسؤوليةٍ.

٣ ـ الرفق بالمسلمين: عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في بيتي

---

(١) أخرجه البخاري في باب الأحكام، ومسلم في باب الإمارة.

(٢) يراجع بحث الانتخاب في الجزء التاسع من التاريخ الإسلامي.

(٣) سورة المائدة: الآية ٤٩ ـ ٥٠.

هـذا: «اللهم من ولي من أمـر أُمّتي شيئـاً فشقّ عليهم فـاشقق عليه، ومن ولي من أمر أُمّتي شيئاً فرفق بهم فارفق به»[1].

٤ ــ العدل: يجب على القائد أن يعدل بين رعيته، فلا يُفرّق بين كبيرٍ وصغيرٍ، أو غنيٍ وفقيرٍ، أو قريبٍ وبعيدٍ، أو صاحب عشيرةٍ ومُنقطعٍ، أو بين أهلِ منطقةٍ وثانيـةٍ فلا ينعـدم الخير في إقليم أو مدينة ولا ينقطع الشرّ في إقليم آخر أو مـدينةٍ ثـانيةٍ وقـد حدثني بعض من أثق بـدينـه وعقله أن رجـلاً ممن يُـريـد الصـدارة، ويتحدّث بالإسلام ويدّعي الدعوة له أنه قال: لا يمكن أن يخرج من دمشق رجـل فاضـل. ناسيـاً ما أنجبتـه هذه المـدينـة خـلال التاريخ ومُتجاهلاً ما فيها من أخيار، وهذا شأن بقية المـدن، ولا نفضّـل مـدينـةً عـلى أُخـرى، فـإن في كـلٍّ منهـا من هؤلاء ومن أولئـك، غير أن الحقـد على شخصٍ أو كـره رجلٍ جعله يُفكّـر بمثل هذا التفكـير. . . . فأمثـال هذا الـرجل لا يمكن أن يكـونوا قادةً ما داموا يفقدون صفـة العدل، ويفضّلون أهـل مكانٍ عـلى آخـر، بل ليس فيهم أيـة صفة تخـولهم القيادة إذ لم يعـرفوا بعـد مبادىء الإسلام التي تناقض قولهم.

٥ ــ الاستماع إلى أهل الرأي: يجب على القـائد أن يستمـع إلى آراء الناصحين وأصحـاب الفكر وينـظر في أقوالهم، ويعمـل بما

---

(١) أخرجه مسلم في باب الإمارة.

يراه مُناسباً، ويتقبّل ما يجده مُوافقاً، هذا بالإضافة إلى استشـارة أهـل الشورى،أهـل الحلّ والعقـد، فـإذا لم يفعـل هـذا ولا ذاك انقلب إلى مُتسلّط.

إذا لم يقم القـائد بمـا يترتّب عليـه اجتمع أهـل الحلّ والعقـد وطلبوا منه الإخلاص والوفاء، وذكّروه بـأيّام الله، وخـوّفوه فـإن رُدع فذلك ما تُريده الأُمّة، وإن أصرّ على ما هو عليه، طلبوا منه الاعتزال، وأجبروه عليه، وبايعوا غيره، والأُمّة كلّها معهم.

وإذا تسـاهلت الرعيـة بواجبـاتها ألـزمهـا بمـا عليهـا، وأهـل الشورى بجانبه.

٦ ــ وأخيراً أريد أن أقول: ليس للقائد أو الأمير الصفة الإدارية المعروفة بل له صفة دينية أيضـاً إذ أنه القيّم عـلى تنفيذ حـدود الله بـين أفراد رعيتـه، وصحيح أنـه ليس شرطـاً أن يكون أعلم القوم إذ تصحّ إمامة المفضول مع وجود الفاضل، ولكنه من أهل العلم ومن البارزين في هذا الميدان فعندمـا يتسلّم الإمرة يصبـح مسؤولاً عن إقامة حدود الله، وتصبح طـاعته واجبـةً شرعـاً وفي مخالفته معصية، بينما لـو كان مـوظفاً إدارياً لم تُسأل الـرعية عن الطاعة والمعصية يوم الحساب الأكبر.



الفهرس

